"أجمل قصة حب في العالم" لويس أراغون

جميلة

جنكيز إيتماتوف

رواية

دار الساقي

مكتبة الفكر الجديد

عبير الربيع

جنكيز إيتماتوف

جميلة

ترجمة

هَڤال يوسف

دار الساقي

Aitmatov Chingiz Torekulovich, *Jamila*
© Eldar Aitmatov, 2014

الطبعة العربية
© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-1-85516-949-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى أهلي؛
أترابي؛
آبائي؛
إخوتي الذين ترعرعوا في المعاطف العسكرية
وأقربائي الأكبر سنّاً.

مكتبة
الفكر
الجديد

ها أنذا أقف مرةً أخرى أمام هذه اللوحة الصغيرة في إطارها المتواضع. عليَّ السفر إلى القرية في صباح الغد، وإنني أنظر إلى اللوحة طويلاً وبتمعّن، كما لو أن في إمكانها أن تجعل سفري سعيداً.

لم أعرض هذه اللوحة في دور العرض من قبل قط، فضلاً عن أنني أحرص على إخفائها بعيداً عندما يزورني أقربائي من القرية. ليس فيها ما يدعو للخجل، لكنها بالكاد تُعتبر فنّاً؛ فهي بسيطة بساطة الأرض المصوَّرة فيها.

في عمق اللوحة: جانب من سماء خريفية باهتة. الريح تطارد سحباً بلقاء عجولة فوق سلسلةٍ جبلية بعيدة. وفي مقدمة اللوحة: سهبُ شيحٍ أحمر، ودربٌ أسود لم يجفّ بعد، بعد مطرٍ قريب العهد. على جانبيِ الطريق تزدحم شجيرات صحراوية يابسة محطّمة، وعلى امتداد آثار عجلات العربات تمتد آثار أقدام مسافرَين، كلّما ابتعدا خفّت آثارهما، بينما المسافران كأنما سيخرجان من إطار اللوحة إذا ما قاما بخطوةٍ أخرى. أحدهما... بيدَ أنني أستبق الأحداث.

حدث هذا حين كنت في ريعان شبابي. كانت السنة الثالثة للحرب، وكان آباؤنا وإخواننا يقاتلون في الجبهات البعيدة، في مكانٍ ما قرب كورسك وأورل. أما نحن اليافعون، الذين لم نكن

قد بلغنا الخامسة عشرة بعد، فكنّا نعمل في الكولخوز[1]. كان العمل الفلاحي الشاق ملقى على كواهلنا الغضّة، وكان العمل شاقّاً بشكل خاص في أيام الحصاد؛ فقد كنا نغيب عن بيوتنا أسابيع بأكملها، ونتواجد ليلاً نهاراً في الحقل أو البيدر أو في الطريق إلى محطة القطار حيث تُنقل الحبوب.

في يومٍ من تلك الأيام القائظة، حين بدت المناجل متوهجةً من الحصاد، وأثناء عودتي من المحطة بعربةٍ فارغة، قررت أن أعرّج على البيت.

بجوار المخاضة تماماً، على الرابية حيث تنتهي الطريق، تنتصب عزبتان مسيّجتان بسياجٍ متين من اللبِن[2]، وتحيطهما أشجار حور سامقة: إنهما بيتانا. تعيش أسرتانا متجاورتين منذ زمنٍ بعيد. أنا من البيت الكبير، ولي أخوان، كلاهما يكبرانني سنّاً، وكلاهما أعزبان، وكلاهما توجّها إلى الجبهة وانقطعت أخبارهما منذ مدةٍ طويلة.

والدي نجّار قديم، يذهب إلى المنجرة في الفِناء المُشترك بعد صلاة الفجر، ولا يعود إلا متأخراً في المساء، ولا يبقى في البيت سوى أمي وأختي.

في البيت المجاور، أو البيت الصغير كما يسمّونه في القرية، يعيش أقارب لنا. لعل أجدادنا أو أجداد أجدادنا كانوا إخوة، لكنني أدعوهم بالأقارب لأننا كنا نعيش كعائلةٍ واحدة. هكذا جرت العادة منذ أزمنة

١ – "الكولخوز" تعاونية زراعية ينشئها الفلاحون فيما بينهم بدعمٍ من الحكومة، بينما "السوفخوز" تعاونية تنشئها الدولة ويعمل فيها الفلاحون عمالاً زراعيين.

٢ – اللبِن: الطوب.

البداوة، حين كان أجدادنا ينصبون الخيام ويرعون الماشية معاً. ونحن بدورنا حافظنا على هذا التقليد. وعندما وصلت التعاونيات الزراعية إلى القرية استقرّ آباؤنا متجاورين. ليس نحن فقط، بل وكل سكان شارع آرالسكايا الممتد على طول القرية في ما بين النهرين، جميعنا ننتمي إلى القبيلة نفسها والعشيرة نفسها.

بعد "كلخزة" الزراعة بفترةٍ قصيرة توفّي ربّ البيت الصغير، تاركاً خلفه زوجته وولديه الصغيرين. وبموجب العادات القبلية القديمة، التي كانت لا تزال متّبعة في القرية، لم يكن يُسمَح لأرملة مع ولدين بمغادرة الأسرة، فقام أبناء قبيلتنا بتزويجها أبي. كان واجبه تجاه أرواح الأسلاف يلزمه بذلك؛ فقد اتّفق أنه كان الأكثر قرابةً إلى المتوفى.

وهكذا باتت عندنا أسرة ثانية. وقد اعتُبر البيت الصغير، مع داره وماشيته، بيتاً مستقلاً، لكننا كنا نعيش معاً في الواقع.

البيت الصغير أيضاً أرسل اثنين من أبنائه إلى الجيش. وقد التحق الابن الأكبر، صادق، بالجيش بعد زواجه بقليل، وكنا نتلقّى منهما رسائل، لكن بفترات متباعدة.

ظلّت الأم، وكنت أدعوها "كيتشي آبا"، أي الأم الصغرى، وكنّتها، زوجة صادق، تقيمان في البيت الصغير، وكلتاهما كانتا تعملان في الكولخوز من الصباح حتى المساء. كانت أمي الصغرى امرأةً طيبة، وديعة، متسامحة، ولم تكن تتأخر عن الشبّان في العمل، سواء في حفر الأقنية أو في السقاية: كانت تمسك المجرفة بيديها بصلابة. وقد أرسل إليها القدر، كأنّما من باب المكافأة، كنّةً تحب العمل. كانت جميلة نِدّاً للأم، لا تكلّ ولا تملّ وماهرة في العمل،

إلاّ أنّ طباعها كانت مختلفة بعض الشيء.

كنت أحبّ جميلة كثيراً، وهي أيضاً كانت تحبني. كنا صديقين حميمين، لكننا لم نكن نجرؤ على مناداة بعضنا باسمينا. ولو كنا من عائلتين مختلفتين لكنت دعوتها باسمها بالطبع، "جميلة"، لكني كنت أدعوها "ژنِيه"[١]، باعتبارها زوجة أخي الأكبر، وهي كانت تدعوني "كيتشيني بالا"، أي الولد الصغير، رغم أنني لم أكن صغيراً على الإطلاق، وكان الفرق بين عمرينا ضئيلاً جداً. لكن هذه هي العادة في قرانا: الكنائن ينادين إخوة أزواجهن الأصغر سنّاً "كيتشيني بالا" أو "سِلفي".

كانت أمي تدير شؤون كلا البيتين، تساعدها أختي الصغرى، وهي فتاة مضحكة تضفر جدائل شعرها بشرائط. لن أنسى أبداً كم كانت تجتهد في العمل في تلك الأزمنة العصيبة، فقد كانت ترعى خراف وعجول كلا البيتين خلف البساتين، وكانت كذلك تجمع الروث وعيدان القش اليابسة ليكون هناك دوماً وقود في البيت؛ وأختي – الفطساء الأنف هذه – هي التي كانت تلطّف وحدة أمي، شاغلةً إياها عن حزنها على ولديها اللذين انقطعت أخبارهما.

كان بيتنا الكبير مديناً لوالدتي بالوئام والرخاء في البيت؛ فهي سيدة البيتين الكليّة السلطة وحارسة التلاحم الأسري. فقد كانت صغيرة جداً حين دخلت أسرة أجدادنا البدو الرحّل، وبعد ذلك كرّمت ذكراهم بإجلال، مديرةً شؤون الأسرتين بكل عدالة. في القرية كانوا يعتبرونها السيدة الأشدّ وقاراً، ذات الضمير الحيّ، التي حنّكتها خبرة

١ – وتعني "زوجة".

الحياة. كل أمور البيت كانت تديرها الأم، أما والدي - والحق يقال - فلم يكن سكان القرية يعتبرونه رأس العائلة، وكثيراً ما كان يتفق للمرء أن يسمع الناس في القرية يقولون بخصوص أي مسألة كانت: "هيه، هيه، الأفضل ألاّ تذهب إلى 'الأسطة' - هكذا يسمّون باحترام الصنّاع المهرة عندنا - فهو لا يعرف سوى فأسه. كل شيء بيد الأم الكبرى عندهم، لذا عليك أن تلجأ إليها، فهذا أجدى...".

لا بدّ من القول إنني كثيراً ما كنت أتدخل في شؤون البيت، رغم صغر سنّي، وكان هذا ممكناً فقط لأن أخوي الكبيرين ذهبا للقتال. وكثيراً ما كانوا يدعونني، على سبيل المزاح أحياناً وبجدية أحياناً، فارس عائلتين، الحامي والمعيل. كنت أفتخر بذلك، ولم يكن الشعور بالمسؤولية يفارقني. فضلاً عن أن أمي كانت تشجّع استقلاليتي، فقد كانت تريدني أن أكون مسؤولاً وفطناً، ليس كوالدي الذي كان يمضي نهاره، من الشروق إلى الغروب، في نشر الخشب وسحجه بصمت.

وإذن، فقد أوقفت العربة أمام البيت، في ظل شجرة صفصاف، وأرخيت الأعنّة، وحين كنت متوجهاً نحو البوابة رأيت في الفناء رئيس العمال أوروزمات، وكان يمتطي حصاناً وعكازه معلّقٌ بالسرج كالعادة، وكانت أمي تقف إلى جواره، وكانا يتجادلان حول مسألة ما. وحين اقتربت منهما سمعت أمي تقول:

- لن يكون هذا! اتّقِ الله، هل سبق أن رأى أحد امرأةً تنقل الأكياس بالعربة؟ لا يا بني، دع كنّتي وشأنها، ولتعمل كما كانت تعمل، فحتى

من دون ذلك جسمي مضعضع؛ فقط حاول إدارة شؤون بيتين! لحسن الحظ أن ابنتي قد كبرت... ها قد مرّ أسبوع وأنا عاجزة عن النهوض، فقرات ظهري تؤلمني، كما لو كنت أحشو اللبّاد. وها هي الذرة يقتلها العطش وتنتظر الماء! - قالت ذلك بحدّة وهي تُدخل طرف غطاء رأسها في ياقة ثوبها كعادتها حين تغضب، فأخذ أوروزمات يقول يائساً وهو يتأرجح على السرج:

- يا لكِ من إنسان! وهل كنت سأطلب إليك ذلك لو كانت لي رِجل بدلاً من هذا العكّاز؟ لكان الأفضل أن أرمي الأكياس إلى العربة وأسوق الخيل بنفسي كما كنت أفعل من قبل!... أعرف أنّ هذا العمل ليس للنساء، لكن من أين آتي بالرجال؟... ولذا قرروا أن نطلب المساعدة من زوجات الجنود. أنتِ تمنعين كنّتك عن مساعدتنا، بينما القيادة توبّخنا بأقذع الكلمات... الجنود بحاجة إلى خبز، بينما نحن نُفشِل الخطة، فهل يعقل ذلك، وما جدواه؟

دنوت منهما وأنا أجرّ السوط على الأرض، وحين لمحني رئيس العمال فرح فرحاً بالغاً... يبدو أن فكرةً ما خطرت له:

- حسناً، إن كنت تخشين على كنّتك لهذه الدرجة، فها هو أخو زوجها - وأشار إليّ بفرح - ولن يسمح لأحد بالاقتراب منها، لذا يمكنك ألاّ تقلقي! فهو فتى "قبضاي". هؤلاء الفتية هم معيلونا، ولن ينقذنا أحد سواهم...

فقالت أمي نادبةً:

- آه ما أغرب منظرك يا متسكّع! أما شعرك فقد طال وانفتل كله خصلاً... والأب عندنا "يا سلام عليه!"، لا وقت لديه ليحلق شعر ابنه.

تلقّف أوروزمات الفكرة بحنكة وشرع يقول بنبرة الأم:

- حسناً، ليتسلَّ الابن اليوم عند كبار السنّ، وليحلق شعره. ابقَ في البيت اليوم يا سعيد، وأطعم الخيول، ومن فجر الغد سنعطي جميلة عربةً: ستعملان معاً. وحذارِ، ستكون مسؤولاً عنها أمامي. وأنتِ أيتها الأم الكبيرة، لا تقلقي، فسعيد لن يسمح بالإساءة إليها. وإذا اقتضى الأمر فسارسل معهما دانيار، وأنتِ تعرفينه جيداً: شاب أبعد ما يكون عن أن يسيء إلى أحد... إنه ذاك الذي عاد من الجبهة منذ فترة قريبة. وهكذا سينقل ثلاثتهم معاً الحبوب إلى محطة القطار، فمن سيتجرّأ حينها على المساس بكنّتك؟ أليس كذلك يا سعيد؟ وأنت ما رأيك، نريد أن نجعل من جميلة حوذيةً، لكنّ الأم لا توافق. اقنعها أنت.

أغراني إطراء رئيس العمّال واستشارته إيّاي كما لو كنت شخصاً بالغاً. فضلاً عن أنني رحت فوراً أتصوّر كم سيكون رائعاً ذهابي برفقة جميلة إلى المحطة، فقلت لأمي متصنّعاً الجدية:

- لن يحدث لها شيء. وهل ستفترسها الذئاب؟ - وهززت كتفي برصانة وأنا أبصق من بين أسناني كحوذيٍّ حقيقي وأسحب السوط ورائي.

- كم أنت فهيم أنت الآخر! - قالت أمي مستغربةً، بل وفرحةً بعض الشيء، لكنها فجأةً أخذت تصيح حانقةً: - الآن سأريك الذئاب. وأنّى لك أنت أن تعرف؟ انظروا إلى هذا الفهيم!

- ومن يعرف إذن إن لم يكن هو، فهو عندك فارس عائلتين ويجدر بك أن تفخري بذلك! - قال أوروزمات يدافع عني وهو يرمق أمي في توجّس خشية أن تعاند ثانيةً. لكنّ أمي لم تعترض على

كلامه، وإنما أطرقت قليلاً ثم قالت وهي تتنهّد:

- أي فارسٍ هو! إنه لا يزال طفلاً، فضلاً عن أنه يقضي نهاره وليله في العملِ... أما فرساننا الأعزاء، فالله أعلم أين هم! صارت بيوتنا كمخيم مهجورٍ تماماً...

كنت قد ابتعدت آنذاك ولم أعد أسمع ماذا قالت أمي أيضاً، وأثناء سيري ضربت زاوية البيت بالسوط بحيث تصاعد الغبار، وتوجّهت إلى تحت ظُلّة، حتى دون أن أردّ على ابتسامة أختي التي كانت تكتّل الروث في الفناء وهي تصفق بيديها، وهناك جلست القرفصاء وأخذت أغسل يديّ على مهل، صابّاً الماء من الجرّة. بعد ذلك دخلت الغرفة وشربت كأساً من اللبن الرائب، ثم حملت كأساً أخرى إلى حافة النافذة ورحت أفتّ فيها الخبز.

أمي وأوروزمات كانا لا يزالان في فناء البيت، لكنهما كانا قد توقفا عن الجدال ويجريان حديثاً هادئاً بصوتٍ خافت. لا بدّ أنهما كانا يتحدثان عن أخوَي، فقد كانت أمي تمسح عينيها المتورمتين مراراً بكمّ ثوبها وترنو بعينين مغرورقتين إلى مكانٍ ما في البعيد، من فوق الأشجار، كما لو أنها تأمل أن ترى ولديها هناك، وهي تهزّ رأسها واجمةً ردّاً على كلام أوروزمات الذي كان يواسيها فيما يبدو.

يبدو أن أمي، وقد استغرقت في أحزانها، قد وافقت على اقتراح رئيس العمّال، الذي - وقد أسعده إدراكه مبتغاه - ساط حصانه وغادر الفناء خبباً.

لم نكن ندري مآل هذا كله - لا أنا ولا أمي.

لم يكن عندي أدنى شك أن جميلة ستتدبّر أمرها مع العربة ذات الحصانين، فهي خبيرة بالخيول، فجميلة ابنة راعي خيل من قرية باكاير الجبلية. أخي صادق أيضاً كان راعياً، ويقال إنه لم يتمكّن من اللحاق بجميلة في السباق ذات يوم في الربيع. من يدري ما إن كان هذا صحيحاً، ولكن يقال إنّ صادقً بعد هذه الحادثة، وقد شعر بالإهانة، خطفها. في حين أكّد آخرون أنهما تزوجا بدافع الحب. لكن أيّاً كانت الحال، فهما لم يعيشا معاً سوى أربعة أشهر، ثم بدأت الحرب واستُدعي صادق إلى الجيش.

لا أدري بمَ أفسّر ذلك، ربما لأن جميلة كانت ترعى القطعان مع أبيها منذ طفولتها (وكانت وحيدته، فكانت ابنته وابنه معاً)، لكن كانت هناك سمات ذكورية في سلوكها وطباعها، فقد كانت حادة الطباع، بل حتى فظّة أحياناً، وتعمل بهمّة كالرجال. كما كانت تجيد التفاهم مع الجيران، لكن لم يكن أحد يجاريها في السباب إذا ما أُهينت بلا سبب، وحدث أنها شدّت بعضهنّ من شعرهنّ. وقد جاءنا الجيران أكثر من مرة يشكونها:

- ما هذه الكنّة التي لديكم؟ "لم يَصِرْ لها في القصر إلاّ من مبارح العصر" وها هي تلسع بلسانها اللاذع بلا احترام ولا خجل!

وكانت أمي ترد على ذلك قائلةً:

- جيد أنها كذلك بالتحديد! فكنّتنا تحبّ قول الحقيقة وجهاً لوجه. هذا أفضل من أن تكتم في نفسها ثمّ تلسع في الخفاء. أما نسائكم فيتظاهرنَ بالوداعة، لكنّ تلك الوديعات كالبيض الفاسد: نظيف وناعم من الخارج، بينما من الداخل كريه الرائحة.

لم يكن أبي والأم الصغيرة يعاملان جميلة قط بصرامة وقسوة كما يُفترض بحم وحماة، بل كانا يعاملانها معاملةً طيبة؛ وكانا يحبانها ولا يتمنيان سوى أن تكون مخلصةً لله ولزوجها.

كنت أفهمهما. فبعد أن أرسلا أربعة أبناء إلى الجندية، كانا يجدان في جميلة، الكنّة الوحيدة في البيتين، عزاءهما، لذا كانا يعزّانها. لكنني لم أكن أفهم والدتي، فهي ليست من الذين يحبّون أيّاً كان بسهولة، فهي امرأة متسلطة، قاسية، تعيش وفق قوانينها الخاصة التي لا تغيّرها أبداً. كل عام، مع قدوم الربيع، كانت تنصب خيمتنا - خيمة البدو الرحّل التي صنعها أبي في شبابه - في فناء البيت وتبخّرها بدخان نبتة العرعر. كما أنها ربّتنا نحن أيضاً على حب العمل واحترام الكبار، وكانت تطالب كل أفراد العائلة بطاعتها طاعةً عمياء.

وتبيّن أنّ جميلة، منذ أولى أيام قدومها إلينا، ليست كما يُفترض بالكنّة أن تكون. صحيح أنها كانت تحترم الكبار وتطيعهم، لكنها لم تكن تحني رأسها أمامهم قط، إلاّ أنها، بالمقابل، لم تكن تهمس بكلام لاذع مشيحةً بوجهها كما تفعل المتزوجات حديثاً، بل كانت تصرّح بأفكارها صراحةً، ولم تكن تخشى الإعراب عن آرائها. وكانت أمي تدعمها وتوافقها غالباً، لكنها كانت دائماً تحتفظ لنفسها بالقول الفصل.

أعتقد أنّ أمّي كانت ترى في جميلة، في صراحتها واستقامتها، ندّاً لها، وكانت في سرّها تحلم أن تحلّ محلها يوماً ما؛ أن تجعلها صاحبة الأمر والنهي في البيت، وحارسة الوئام الأسري، مثلها تماماً.

كانت أمي تعظ جميلة قائلةً:

- اشكري الله يا ابنتي أنك دخلتِ بيتاً راسخاً مباركاً. وهذا لسعدك، فسعادة المرأة تكمن في إنجاب الأبناء ليعمّ الخير البيت. وسوف ترثين، والحمد لله، كل ما "حَوَّشْناه" نحن العجائز، فنحن لن نحمله معنا إلى القبر. والسعيد من الناس هو ذاك الذي يصون شرفه وضميره. تذكري هذا، صوني نفسك!...

لكن، رغم ذلك، كان هناك ما يقلق الحماة في جميلة، فقد كانت شديدة المرح، تماماً كطفلٍ صغير. أحياناً كانت تبدأ بالضحك فرحةً بلا سبب، وبصوتٍ عالٍ فوق هذا. وأثناء عودتها من العمل لم تكن تمشي مشياً بل كانت تركض في فناء الدار وتقفز من فوق الساقية، وتروح تقبّل وتعانق حماتها هذه أو تلك دون أيّما سبب.

كما أنّ جميلة كانت تحبّ الغناء، وكانت دوماً تدندن بأغنيةٍ ما دونما خجل من الكبار. وهذا كله لم يكن يتلاءم بالطبع مع التصوّرات التقليدية في القرية لسلوك الكنّة في الأسرة، لكن كلتا الحماتين كانتا تطمئنان نفسيهما بأنّ جميلة ستغدو أكثر رصانةً ورزانة بمرور الوقت؛ فكلهنّ كذلك في شبابهنّ. أما بالنسبة إليّ فكانت جميلة أروع إنسان في الدنيا، وكنا نمرح كثيراً حين نكون معاً، ونضحك دون أيّ سبب، ونطارد بعضنا بعضاً في باحة الدار.

كانت جميلة فتاةً حسناء، فقد كانت هيفاء ممشوقة القوام، ذات شعرٍ خشنٍ سبط مجدول في ضفيرتين كثيفتين ثقيلتين، وكانت تعقد وشاحها الأبيض ببراعة بحيث يتدلى على جبينها مائلاً قليلاً، وكان هذا يليق بها كثيراً ويُظهر بشرة وجهها السمراء الناعمة بشكل جميل. وحين كانت تضحك كانت عيناها اللوزيتان السوداوان الضاربتان

إلى الزرقة تلمعان بحماسة الشباب، ولكن حين تشرع فجأةً بإنشاد أغانٍ ريفيةٍ حزينة فإنّ عينيها الجميلتين كانتا تومضان ببريقٍ كئيب.

كُنت كثيراً ما ألاحظ أنّ الشبّان، وخصوصاً الجنود العائدون من جبهات القتال، كانوا يرمقونها بنظراتهم. وجميلة نفسها كانت تحب المزاح، لكنها كانت تلقّن كل من يتجاوز حدوده درساً لا يُنسى. ومع ذلك كان هذا الأمر يزعجني دائماً، فقد كنت أغار عليها كما يغار الإخوة الأصغر سنّاً على أخواتهم، وحين كنت ألمح شبّاناً حول جميلة كنت أحاول إزعاجهم بشتى الوسائل، فكنت أنتصب أمامهم في تحدٍّ وأرمقهم بغضبٍ شديد كما لو أني أقول لهم: "لا تأخذوا مجدكم كثيراً. إنها زوجة أخي، ولا تظنّوا أنْ ليس هناك من يدافع عنها!".

في لحظات كهذه كنت أتدخل في الحديث بوقاحةٍ متعمدة، بمناسبة وبلا مناسبة، محاولاً السخرية من مغازليها، وعندما كان لا ينتج شيء عن ذلك كنت أفقد السيطرة على نفسي وأنخر بصفير. وكان الشبّان يتلوون من الضحك:

- أوي، فقط انظروا إليه! أنّى لها أن تكون زوجة أخيه، يا له من أمرٍ مسلٍّ، وكأننا لا نعلم!

كنت أتمالك نفسي، لكنني كنت أشعر رغماً عنّي بأذنَي تضطرمان وبعينَي تغرورقان بالدموع جرّاء شعوري بالإهانة. لكنّ زوجة أخي، جميلة، كانت تتفهمّني، فكانت تتصنّع وجهاً جادّاً، وهي بالكاد تحبس انطلاق ضحكتها، ثم تتخذ وضعيةً وقورة وتقول للفتية:

- وهل تعتقدون أنّ زوجات الإخوة مرميات على قارعة الطريق؟ لعلهنّ كذلك عندكم، أما عندنا فلا! لنذهب يا سِلفي، أفٍّ لكم!

- ثم كانت، وقد تورّدت خجلاً أمامهم، ترفع رأسها باعتزاز وتهزّ كتفيها في تحدٍّ، وتبتسم بصمت ونحن نغادر.

وكنت أرى في ابتسامتها تلك الأسى والفرح معاً. لعلها كانت تقول في سرّها آنذاك: "يا لك من أحمق! فلو أردت أن أطلق لنفسي العنان فمن سيمنعني؟ ولو راقبتني العائلة كلها فستعجز عن ذلك!"، وفي حالات كهذه كنت ألوذ بالصمت شاعراً بالذنب. نعم، كنت أغار على جميلة، وأقدّسها، وكنت فخوراً بأنها زوجة أخي، فخوراً بجمالها وبسلوكها الحرّ المستقل. كنت وإياها أكثر الأصدقاء حميميةً، ولم يكن أحدنا يخفي عن الآخر شيئاً.

في تلك الأيام كان الرجال في القرية قلّة، وكان بعض الشبان يستغلون ذلك فكانوا يتصرفون مع النساء بوقاحة ويعاملونهن بازدراء، ولسان حالهم يقول: لا داعي للتلكؤ والمماطلة، إذ يكفي أن يشير المرء بإصبعه حتى تهرع إليه أيٌّ منهن.

وفي أحد أيام الحصاد أخذ عثمان، وهو من أقربائنا البعيدين، يتحرّش بجميلة. وهو أيضاً كان من الذين يعتقدون أن ما من امرأة يمكنها مقاومتهم. لكن جميلة دفعت يده بنفور ونهضت من عند كومة الحصاد حيث كانت ترتاح في الظل.

- إليك عني! فماذا يُتوقّع منكم، أنتم فحول القطيع، سوى ذلك؟

- قالت بألم وأشاحت بوجهها.

برم عثمان شفتيه البليلتين بازدراء واستلقى أسفل الكومة.

- "لم يكن اللحم المعلّق على عمودٍ عالٍ في متناول القطة

فقالت إنه منتن"[1]... ما لك تكابرين وتشمخين بأنفك رغم أنك تموتين رغبةً في ذلك.

– لعلي أرغب في ذلك حقاً! لكن هكذا هو قدرنا، بينما أنت، أيها الأحمق، تضحك. سأظل زوجة جندي مئة سنة، إلا أنني لا أرغب حتى في البصق على أمثالك... مقرف! ولولا الحرب لكنا رأينا إن كانت أيٌّ من النساء ستقبل بمجرد التحدث إليك!

– وهو ما أقول، الحرب! ولذلك أنت هائجة إذ تفتقدين سوط زوجك! – وهنا ابتسم عثمان. – آخ لو كنتِ امرأتي، لكنتُ أدّبتكِ، ولكنتِ غنّيت موّالاً مختلفاً حينذاك.

كادت جميلة أن تنقضّ عليه، وأن تقول له شيئاً ما، لكنها ظلت صامتة وقد أدركت أن لا جدوى من المشاحنة. رمقته بنظرة بغض طويلة ثم رفعت مذراتها عن الأرض، وهي تبصق بقرف، ومضت مبتعدةً.

كنت واقفاً على العربة وراء كُدس الحصيد، وحين رأتني جميلة أدارت ظهرها بشدّة، فقد أدركت الحال التي كنت فيها. شعرت أنني أنا من أُهين، لا هي، وأنني، أنا بالتحديد، من أُخزي، فوبّختها والألم يعتصر قلبي:

– لمَ تخالطين أمثال هؤلاء، لمَ تكلّمينهم؟

ظلّت جميلة تروح وتغدو، عابسةً متجهّمة، حتى المساء، دون أن تنبس بكلمة معي أو تبتسم لي كما في السابق. وحين قرّبت إليها العربة غرست جميلة مذراتها في كومة القش بعنف ورفعتها كلها دفعةً واحدة وحملتها أمامها بحيث تخفي وجهها وراءها، حتى لا تتيح لي

---

١ – أمثولة شعبية يقابلها عندنا: "لم يكن العنب في متناول الثعلب فقال إنه حصرم".

المجال للحديث عن تلك الإساءة الفظيعة التي كتمتها في داخلها. كانت تلقي كومة الدريس دفعةً واحدة ثم تنقضّ فوراً على كومةٍ أخرى، وسرعان ما امتلأت العربة. وحين ابتعدتُ التفتُّ إلى الخلف فرأيتها واقفة منكّسةً رأسها، مستندةً إلى ذراع المذراة، وتفكر في أمرٍ ما، ثمّ ثابت إلى نفسها فجأةً وانكبّت على العمل من جديد.

بعد أن حمّلنا العربة الأخيرة راحت جميلة ترنو إلى الأفق طويلاً، كأنما نسيت كل ما في الدنيا: هناك، وراء النهر، في مكانٍ على أطراف سهوب كازاخستان، كانت شمس الأصيل الآفلة في موسم الحصاد تتوهج كفوهة تنّورٍ مشتعل؛ كانت تسبح مبتعدةً ببطء إلى ما وراء الأفق، موهّجةً بهالتها سحباً هشّة متناثرة في السماء، وملقيةً أشعتها الأخيرة على السهب الليلكي الذي سبق أن خيّمت زرقة الغروب المبكر على وهاده. كانت جميلة ترنو إلى الغروب بابتهاجٍ هادئ، كما لو أنّ مشهداً من مشاهد الحكايات الخرافية يتراءى لها. كان وجهها مشرقاً بالحنان، وشفتاها مفترّتان عن ابتسامةٍ لطيفة كالأطفال. وهنا، وكأنها بالضبط تردّ على توبيخاتي لها، التي لم أقلها وكانت لا تزال على لساني تستجدي الانطلاق، استدارت جميلة نحوي وشرعت تقول بنبرةٍ كما لو كنّا نواصل حديثنا السابق:

– لا تشغل بالك به يا "كيتشيني بالا"، تبّاً له! وهل هو إنسان؟... وصمتت مشيّعةً بنظرها حواف قرص الشمس المنطفئ، ثم تنهّدت وتابعت تقول: – أنّى لأمثال عثمان معرفة ما يعتمل في نفس الشخص؟ لا أحد يعرف ذلك... وربما لا وجود لرجالٍ من هذا القبيل في الدنيا...

بينما كنت أستدير بالخيول كانت جميلة قد هرعت إلى النساء اللواتي كنّ يعملن إلى جوارنا، وتناهت إليّ أصواتهنّ العالية المرحة. يصعب القول ماذا جرى لها: ربما انشرح صدرها عندما رنت إلى مغيب الشمس، أو لعلها ببساطة تشعر بالفرح لأنها أحسنت القيام بعملها. كنت جالساً في العربة، على كومة القش العالية، وأنظر إلى جميلة التي نزعت وشاحها الأبيض عن رأسها وراحت تركض وراء صديقتها على المرج المحصود الظليل، باسطةً ذراعيها على وسعهما، وذيل ثوبها يخفق بفعل الريح. وأنا أيضاً فارقني الحزن فجأةً: وهل يجدر التفكير في ثرثرة عثمان! ثم صحت بالجياد أستعجلها وأنا أسوطها:

- هيا، انطلقي!

في ذلك اليوم، وكما أوصاني رئيس العمال، قررت أن أنتظر والدي ليحلق شعري، وفي تلك الأثناء رحت أكتب جواباً على رسالة صادق. وهنا أيضاً كانت لنا قواعد خاصة بنا: الإخوة يوجّهون رسائلهم إلى أبي، وساعي بريد القرية يسلّمها لأمي، أما قراءة الرسائل والردّ عليها فكانت مهمتي. حتى قبل الشروع في الكتابة كنت أعرف مسبقاً ماذا كتب صادق، فرسائله كلها كانت متشابهة كالخراف في القطيع. كان صادق يبدأ رسائله دوماً بعبارة "السلام عليكم" وبعد ذلك يقول دوماً: "أبعث هذه الرسالة إلى أهلي المقيمين في تالاس العطرة المزهرة: إلى والدي الحبيب والعزيز جولتشوباي..." ثم يأتي دور أمي، فأمه، وبعد ذلك يذكرنا جميعاً في تتالٍ صارم. ثم تأتي الأسئلة التي لا بدّ منها عن صحة وسعادة شيوخ العشيرة

والأهل والأقارب. وفقط في خاتمة الرسالة، وكأنما على عجل، يكتب صادق: "كما وأبعث بتحياتي إلى زوجتي جميلة...".

بطبيعة الحال، ما دام الأب والأم على قيد الحياة، وبما أنه يتم إرسال التحيات إلى شيوخ العشيرة والأهل في القرية، فإن ذكر الزوجة أولاً، ناهيكم عن كتابة الرسائل باسمها، إنما هو أمر غير مقبول ببساطة، بل وغير لائق. وليس صادق وحده من يفكّر على هذا النحو، بل وكل رجل يحترم نفسه، وهذا أمر مفهوم تماماً، فهذا كان تقليداً معروفاً في القرية، ولم يكن محلَّ نقاش، بل ولم نكن نفكّر فيه ببساطة، ولم تكن مسألة مهمة على أية حال، فكل رسالة كانت حدثاً مفرحاً.

كانت أمي تجبرني على إعادة قراءة الرسالة عدة مرات، ثم تمسك بالورقة بحنانٍ وتضرّع وبمنتهى الخرافة وكأنها تمسك بعصفورٍ على وشك الطيران، وأخيراً تطوي الرسالة على شكل مثلث، محرّكةً أصابعها المتصلّبة بصعوبة، ثم تقول بصوتٍ تخنقه العبرات:

- آه يا أعزائي، سنصون رسائلكم كما التعويذة. إنه يسأل عن أحوال الأب والأم والأقرباء... وأين سنذهب، فنحن في بيوتنا في القرية. بل كيف أحوالكم أنتم؟ اكتبوا ولو كلمة واحدة: أنا حي، وكفى، ولا نحتاج أكثر من ذلك...

ظلّت أمي تتأمل المثلث طويلاً، ثمّ دسّته في محفظة جلدية، حيث يُحتفظ بالرسائل كلها، وأقفلت عليها في الصندوق.

إذا صودف وجود جميلة في البيت في هذه الأثناء كان يتاح لها هي أيضاً أن تقرأ الرسالة. وكل مرة تمسك فيها بالمثلث بيديها كنت ألاحظ

أنها تحمرّ. كانت تقرأها بينها وبين نفسها بلهفة، وتمرّ بنظرها على السطور بسرعة نافذة الصبر، ولكن كلّما قاربت الرسالة على الانتهاء كانت كتفاها تتهدّلان وتخبو النار في وجنتيها شيئاً فشيئاً. كانت تقطّب حاجبيها السويين، ودون أن تنهي قراءة الأسطر الأخيرة تعيد الرسالة إلى أمي بلامبالاة باردة وكأنها تعيد شيئاً كانت قد استعارته.

واضح أن الأمّ كانت تفهم مزاج كنّتها على طريقتها، وكانت تحرص على تشجيعها، فكانت تقول لها وهي تقفل الصندوق:

- ما بكِ؟ بدلاً من أن تفرحي يغالبك الغمّ! أم أنك الوحيدة التي زوجها في الجندية؟ لستِ الوحيدة في المأساة، الشعب كله يعاني، فاصبري مع الشعب. هل تعتقدين أنّ هناك نساء لا يشتقنَ إلى أزواجهنّ ولا يشعرنَ بالحنين إليهم... اغتمّي وحنّي لكن لا تُظهري ذلك، اكتميه في نفسك!

ظلت جميلة صامتةً، لكنّ نظرتها العنيدة والكئيبة بدت وكأنها تقول: "إنك لا تفهمين شيئاً أيتها الأم!".

رسالة صادق هذه أيضاً وصلت من مدينة ساراتوف، حيث كان في المستشفى. كتب صادق أنه سيعود إلى البيت في الخريف - إن شاء الله - بسبب إصابته، وكان قد أخبرنا بذلك من قبل، وكنا جميعاً فرحين بقرب لقائه.

لكنني، رغم ذلك، لم أبقَ في البيت في ذلك اليوم، بل ذهبت إلى البيدر. كنت أبيت هناك عادةً. سقت الخيول إلى حقل البرسيم وعقلتها هناك. لم يكن رئيس الكولخوز يسمح برعي الماشية في حقل البرسيم، لكني كنت أخرق هذا المنع لكي تكون خيولي في

حال جيدة. كنت أعرف موقعاً معزولاً وهادئاً في وهدة، فضلاً عن أنّ أحداً لم يكن في إمكانه ملاحظة شيء في الليل. لكن في هذه المرة، عندما حللت عدّة الخيول وسقتها، تبيّن أنّ أحدهم قد أطلق أربعة خيول في حقل البرسيم، وقد أغاظني ذلك، فأنا كنت صاحب عربة بحصانين، وهذا كان يعطيني الحقّ في الامتعاض، ومن دون تردّد قررت طرد الخيول الغريبة بعيداً كي ألقّن الوقح الذي اقتحم ملكيتي درساً. لكنني فجأةً تعرّفت حصانَي دانيار إيّاه الذي تكلّم عنه رئيس العمال في النهار، وإذ تذكّرت أننا اعتباراً من الغد سننقل الحبوب مع دانيار إلى المحطة، تركت حصانيه وشأنهما ورجعت إلى البيدر.

تبيّن أنّ دانيار هنا، لكنه أنهى للتو تشحيم عجلات عربته، وكان الآن يشدّ الصامولات على المحاور. سألته:

– أهذه خيولك في الوهدة يا دانيكه؟

أدار دانيار رأسه ببطء.

– اثنان منها لي.

– والزوج الآخر؟

– إنهما لتلك... ما اسمها... أليس جميلة... إنهما لها. من تكون بالنسبة إليك؟ زوجة أخيك؟

– نعم، زوجة أخي.

– رئيس العمال نفسه تركها هنا وأمرني بمراقبتها...

– جيد أنني لم أطرد الخيول!

حلّ الليل وهدأت الريح المسائية الخفيفة التي تهبّ من ناحية الجبال، وحلّ الهدوء في البيادر أيضاً. استلقى دانيار إلى جواري

أسفل كومة القش، لكنه نهض بعد قليل ومضى باتجاه النهر. توقّف ليس بعيداً عن الجرف، وظلّ واقفاً على هذا النحو، شابكاً يديه وراء ظهره ورأسه متدلٍ على كتفه بعض الشيء، وكان يدير لي ظهره. كان في الإمكان تمييز قامته الفارعة المحدَّدة الزوايا، كما لو أنها منحوتة بفأس، في ضوء القمر الخفيف بوضوح. بدا أنه يصغي بانتباه إلى خرير النهر الهادر المسموع بوضوح في الليل في المنحدرات، ولعله كان يصغي أيضاً إلى هسهسات وأصوات الليل التي لا تصلني. "مرةً أخرى ينوي أن يبيت عند النهر غريب الأطوار هذا!" وابتسمت.

ظهر دانيار في قريتنا منذ فترة قريبة. ففي أحد الأيام جاء إلى الحقول ولدٌ يركض ويقول إنّ جندياً مصاباً قد وصل القرية، أما من هو وابن من، فلا أحد يعلم. آخ لو تدرون ما حصل! ففي القرية تجري الأمور على النحو التالي: يصل أحدهم من الجبهة فيهرع الناس عن بكرة أبيهم أفواجاً، الكبار والصغار، لرؤية القادم، فيصافحونه ويسألونه إن كان قد رأى أحد أقاربهم، ويسمعون الأخبار. وهنا علا ضجيجٌ هائل وراح كلٌ منهم يخمّن: لعل أخانا قد عاد، أو لعله صهرنا؟ وحتى الحصّادون هرعوا للاستعلام عن الأمر.

تبيّن أنّ دانيار كان مواطناً أصيلاً من أهل القرية التي هي مسقط رأسه. يقال إنه تيتّم في طفولته، وظل لثلاث سنوات يتنقّل من بيتٍ إلى آخر ثم رحل لعند الكازاخ في سهب تشاكماك، فأقاربه من جهة والدته من الكازاخ. وبما أن الطفل لم يكن له أهل يسترجعونه، فقد نُسي أمره. وحين كانوا يسألونه كيف عاش بعدما ترك البيت كان

دانيار يتملّص من الجواب ويردّ مواربةً... ومع ذلك كان في الإمكان إدراك أنه قد احتمل الكثير من المرارة، وأنه عاش اليتم مضاعفاً. فقد شرّدت الحياة دانيار في شتى الأصقاع كنبات الحرمل[1]، ورعى الماشية طويلاً في سِباخ سهب تشاكماك المالحة. وعندما صار يافعاً أخذ يعمل في شقّ الأقنية في البراري، وفي سوفخوزات القطن الجديدة، وبعد ذلك في مناجم الفحم في أنغرِن، قرب طشقند، ومن هناك التحق بالجيش.

قابل الناس عودة دانيار إلى قريته الأم باستحسان. "رغم ما طوّحت به الحياة في أقاصي الغربة، إلا أنه عاد، وهذا معناه أنّ قدره أن يشرب من مياه مسقط رأسه. بل ولم ينسَ لغته الأم، يزوغ إلى الكازاخية أحياناً، إلاّ أنّ لغته سليمة!".

كان الشيوخ يقولون: ""التولبار[2]" يعثر على قطيعه في ما وراء الجبال والبحار. ومن لا يعزّ عليه وطنه وقومه! "عفارم عليك" أنك عدت. إننا سعداء بذلك، وكذلك أرواح أسلافك. وإن شاء الله سنهزم الألمان ونعيش بسلام، وأنت ستكوّن أسرة كالآخرين، وفي بيتك أيضاً سيتصاعد الدخان من الموقد!". وإذ تذكّروا أجداده فقد حدّدوا عشيرته بدقة، وهكذا ظهر في قريتنا "نسيب جديد" اسمه دانيار.

وها هو رئيس العمال أوروزمات يأتينا بجنديٍّ طويل القامة محدودب الظهر يعرج على قدمه اليسرى، إلى الحصاد. كان معطفه

---

١ - الحرمل أو القرصعنة: نبتة مرّة الطعم، حين تيبس تدحرجها الريح في البراري، وهو ما يقصده الكاتب.

٢ - التولبار: الحصان المجنّح الخرافي.

ملقىً على كتفيه وكان يسارع الخطى محاولاً ألاّ يتأخر عن الرَّهوِ الخبِب لمهر أوروزمات الدحداح، بينما كان رئيس العمال نفسه، وهو يسير بقامته وخطواته القصيرة إلى جانب دانيار الفارع الطول، شبيهاً بكروان النهر إلى حدٍّ ما. بل إنّ الفتية راحوا يضحكون حتى.

كانت ساق دانيار المصابة، التي لم تُشفَ تماماً بعد، لا تنثني عند الركبة، ولهذا لم يكن ينفع للحصاد فألحقوه بنا، نحن الفتية، للعمل على الحاصدة. وبصريح العبارة: لم يعجبنا كثيراً، وقبل كل شيء لم يرق لنا انطواؤه على نفسه. فقد كان دانيار شحيح الكلام، وحين يتكلم فإنك تشعر أنه يفكّر في شيءٍ آخر في هذه الأثناء وأنّ له أفكاره الخاصة، ولا تدري إن كان يراك أم لا رغم أنه ينظر إلى وجهك مباشرةً بعينيه الشاردتين الحالمتين. فكنّا نقول:

– شاب مسكين، يبدو أنه لم يعد إلى رشده بعدُ بعدَ معارك الجبهة!

لكنّ المثير أنّ دانيار، رغم شروده الدائم هذا، كان يعمل بسرعة ودقة، ومن الجانب قد يظنّه المرء شخصاً اجتماعياً وصريحاً. لعلّ اليتم القاسي في الطفولة علّمه إخفاء مشاعره وأفكاره وخلق لديه هذا التكتم! ولعلّ الأمر كذلك فعلاً.

كانت شفتا دانيار، بالتغضّنات الصارمة في زاويتيهما، مزمومتين بصرامة دائماً، وكانت عيناه تنظران بحزنٍ وسكينة، وفقط حاجباه المرنان المتحركان كانا يمنحان الحياة لوجهه الضامر المتعب دوماً. أحياناً كان ينصّب أذنيه كأنما سمع شيئاً لم يبلغ الآخرين، وحينئذٍ كان حاجباه يرتفعان عالياً وعيناه تتقدان بغبطةٍ غير مفهومة، ثم يبتسم طويلاً ويُسرُّ لأمرٍ ما. كان هذا كله يبدو لنا مستغرباً، وليس هذا

فحسب، بل كانت لديه غرائب أخرى غيرها. ففي المساء كنا نحلّ الخيول ونجتمع عند الكوخ بانتظار أن تُعدّ الطباخة الطعام، ولكنّ دانيار كان يتسلّق المنطرة[1] ويبقى جالساً هناك إلى أن يحلّ الظلام. فكنّا نتساءل ضاحكين:

- ماذا يفعل هناك، هل كلّفوه بالحراسة أم ماذا؟

في أحد الأيام تسلقت المنطرة وراء دانيار بداعي الفضول. لم يبدُ أنّ هناك ما هو مميّز هنا: كان السهب السفحي الغارق في الشفق الليلكي ينبسط شاسعاً، وبدت الحقول الضبابية المعتمة وكأنها تتلاشى ببطء في السكون.

لم يعر دانيار مجيئي أدنى اهتمام؛ فقد كان يجلس ممسكاً بركبتيه، وينظر إلى مكانٍ ما أمامه نظرةً شاردة، لكن مشرقة. ومرةً أخرى بدا لي أنه يصيخ السمع جاهداً إلى أصواتٍ ما لا تبلغ مسمعي. أحياناً كان ينصّب أذنيه متسمّراً مكانه وعيناه جاحظتان. كان هناك ما يقضّ مضجعه، وكان يخطر لي أنه سينهض واقفاً ويبوح بما يجيش في نفسه، لكن ليس لي - فهو لم يلحظ وجودي - بل لشيءٍ هائل، مترامي الأطراف، غير مرئي من قِبلي. ثم رنوت إليه فلم أتعرّفه: كان دانيار جالساً منكّس الرأس في تراخٍ وخمول كأنه ببساطة يأخذ قسطاً من الراحة بعد العمل.

كانت مواقع الحصاد في كولخوزنا متناثرة في الأراضي التي يغمرها فيضان نهر كوركوريو. وكان نهر كوركوريو يندفع بقوة من

١ - المنطرة: غرفة صغيرة في أعلى برج أو شجرة، تستخدم للحراسة عادةً.

شقٍّ جبلي غير بعيد عنا وينحدر في الوادي بتيارٍ شديد الجموح. وموسم الحصاد هو فصل فيضان الأنهار الجبلية، ومن المساء كانت المياه تبدأ بالازدياد، عكرةً، مزبدة. كنت أستيقظ في منتصف الليل في الكوخ على هدير النهر الشديد، وكان الليل الأزرق الصافي يرنو إلى الكوخ بعيون نجومه، وتهبّ ريحٌ باردة بين الحين والآخر، والأرض غافية، وفقط النهر الهادر كان يبدو وكأنه قد انحرف في اتجاهنا مهدّداً. ورغم أننا لم نكن على الضفة إلا أننا في الليل كنا نشعر أنّ المياه شديدة القرب بحيث أنّ الخوف كان يستولي علينا رغماً عنّا: ماذا لو طغى الماء علينا فجأةً، ماذا لو اكتسح الكوخ وجرفه؟ كان الحاصدون يغطّون في نومٍ عميق، في حين أنني كنت أعجز عن النوم فكنت أخرج إلى الخلاءً.

الليل جميلٌ ومخيف في الأراضي التي يغمرها فيضان نهر كوركوريو. هناك وهنا يدكن لون الخيول المقيّدة في المرج. لقد رعت حتى الشبع من العشب الرطب، وهي الآن تغفو مرهفةً وتنخر بين الحين والآخر. وفي الجوار تتدحرج حجارة نهر كوركوريو في صمتٍ أصمّ، منجرفةً نحو الضفة، وهي تثني شجيرة صفصاف مبللة يصفعها النهر بشدّة. النهر المندفع بلا هوادة يملأ الليل بهديرٍ صاخبٍ رهيب يدخل الرعب في القلوب: إنه مخيف!

في مثل تلك الليالي كنت دوماً أتذكر دانيار. فقد كان يبيت عادةً بين أكداس العشب على ضفة النهر مباشرةً. ألم يكن يشعر بالخوف؟ كيف لا تصمّه ضجة النهر على الأقل؟ أكان ينام؟ لماذا يمضي الليل عند النهر وحيداً؟ ماذا يجد في ذلك؟ شخص غريب الأطوار، ليس

من هذا العالم. وأين هو الآن؟ أُجيل النظر فلا أجد أحداً. الضفتان تمتدان بعيداً بأكمات خفيفة الانحدار، وتلوح قم الجبال في العتمة، وهناك، في أعلى النهر، تخيّم السكينة والنجوم.

المفروض أنّ الوقت قد حان لكي يتّخذ دانيار لنفسه أصدقاء في القرية، لكنه، كما في السابق، ظلّ وحيداً، وكأنّ مفاهيم الصداقة أو العداوة، الإعجاب أو الحسد، كانت غريبةً بالنسبة إليه. ففي القرية، يُعتبر "القبضاي" هو ذاك الذي يستطيع الدفاع عن نفسه وعن الآخرين، القادر على عمل الخير والتسبّب بالأذى أحياناً؛ ذاك الذي يجيد التصرّف في المآدب والمآتم، دون أن يتخلّف عن الشيوخ الموقّرين – هؤلاء، حتى النساء يلحظنهم.

أما حين ينزوي الشخص جانباً، كما يفعل دانيار، ولا يتدخل في شؤون القرية اليومية، فإن بعضهم ببساطة لن يلحظوه، فيما يحط آخرون من شأنه قائلين:

– إنه لا يضرّ ولا ينفع. المسكين يعيش كيفما اتفق، كان الله في عونه...

على العموم، شخص كهذا يغدو موضع السخرية أو الشفقة. أما نحن، اليافعون، الذين كنّا نرغب دوماً في الظهور بمظهر أكبر سنّاً لكي نكون على قدم المساواة مع الشبّان "القبضايات"، فكنا نسخر من دانيار باستمرار، إن ليس في حضوره ففيما بيننا. كنّا نسخر حتى من كونه يغسل قميصه العسكري بنفسه في النهر. وكان يرتديه بعد أن يغسله قبل أن ينشف، إذ لم يكن يملك سواه.

لكنّ الغريب أننا لم نجرؤ، مع ذلك، على معاملته معاملة الندّ

للندّ، رغم أن دانيار كان شخصاً هادئاً ووديعاً، ليس لأنه كان أكبر منّا سنّاً - فالفرق بيننا ثلاث أو أربع سنوات، ومع أمثال هؤلاء كنا نرفع الكلفة ونخاطبهم بصيغة المفرد - وليس لأنه كان صارماً أو يشمخ بأنفه، وهذا يوحي بالاحترام في بعض الأحيان، لا، بل كان هناك شيء مبهم يكمن في شروده الصامت الحزين، وكان هذا يردعنا، نحن الذين كنا مستعدين للسخرية من أيٍّ كان.

لعلّ ما لعب دوراً في ردعنا كان الحادثة التالية:

كنت صبياً شديد الفضول، وكثيراً ما كنت أزعج الناس بأسئلتي، وكان شغفي الحقيقي هو سؤال الجنود القادمين من الجبهة عن الحرب. وحين ظهر دانيار عندنا أثناء الحصاد رحت أتحيّن الفرصة لتنسّم الأخبار واستخراج شيء ما من الجندي العائد من الجبهة حديثاً.

وهكذا، في أحد المساءات، كنا جالسين حول النار بعد العمل، وكنا قد تناولنا الطعام ونرتاح بهدوء. سألته:

- احكِ لنا شيئاً عن الحرب يا دانيكه قبل أن نخلد للنوم؟

لاذ دانيار بالصمت في البداية، بل وبدا أنه شعر بالاستياء. ظل يحدّق في النار طويلاً، ثم رفع رأسه ورنا إلينا.

- عن الحرب تقول؟ - سأل، وكما لو أنه يردّ على خواطره هو أردف يقول بصوتٍ مكتوم: - لا، الأفضل ألاّ تعرفوا شيئاً عن الحرب!

ثم استدار وتناول حزمةً من الحشيش اليابس فرماها في النار وشرع ينفخ فيها دون أن ينظر إلى أيٍّ منّا.

لم يقل دانيار أكثر من ذلك. لكن حتى من هذه العبارة القصيرة

التي تفوّه بها أدركنا أنه لا يمكن الحديث عن الحرب بهذه البساطة، وأنه لن ينتج عن ذلك حكاية ما قبل النوم. الحرب متخثّرة كالدم في أعماق قلب الإنسان، والحديث عنها ليس بالأمر السهل. شعرت بالخجل من نفسي، ولم أسأل دانيار عن الحرب بعد ذلك قط.

غير أنّ هذا لم يكن السبب الوحيد الذي جعله جديراً بالاحترام، فسرعان ما نُسي ذلك المساء كسرعة فقدان الاهتمام بدانيار نفسه في القرية. فانعزاليته وانطوائيته أثارتا عند الناس اللامبالاة أو، ببساطة، الشعور بالشفقة تجاهه، فكانوا يقولون عنه:

- ولد مشرّد مسكين. جيد أنه يعتاش في الكولخوز، وإلاّ لكان عليه أن يتسوّل... إنه هادئ وطيب كحملٍ وديع!

شيئاً فشيئاً اعتاد الناس طباع دانيار الغريبة، وبعد ذلك لم يعودوا يلحظون ذلك على الإطلاق. ولعلّ هذا ما كان ينبغي: حين لا يتميز المرء بأي شيء فإنّ الناس ينسونه شيئاً فشيئاً.

في اليوم التالي، في الصباح الباكر، سقتُ ودانيار الخيول إلى البيدر، وفي هذه الأثناء وصلت جميلة أيضاً، وحين لمحتنا صاحت من بعيد:

- أوي يا "كيتشيني بالا"، أحضر خيولي إلى هنا! وأين عدّتي؟

- ثم أخذت تعاين العربة بهيئة جادة، وكأنها عملت سائقة عربة طوال حياتها، لترى إن كانت حلقات العجلات مثبتة جيداً في مواضعها.

حين اتجهنا، أنا ودانيار، نحوها على حصانينا بدت هيئتنا مضحكةً لها. فساقا دانيار العاريتان النحيلتان تتأرجحان في ساقي

جزمته توشكان أن تنزلقا منها، وأنا كنت أهمز الحصان بكعبَيّ العاريتين المتّسختين إلى حدّ السواد.

- يا لهذا الثنائي! - قالت جميلة ورفعت رأسها بمرح، وفي الحال أخذت تلقي علينا الأوامر: - هيا أسرعا، حتى نعبر السهب قبل اشتداد الحرّ!

ثم أمسكت بلجامي الحصانين وساقتهما نحو العربة بثقة وشرعت تربطهما إليها، وقد فعلت ذلك بنفسها حقاً، ولم تطلب مني سوى مرة واحدة أن أريها كيف توضع الأعنّة. أما دانيار فلم تلحظ وجوده وكأنه لم يكن هناك مطلقاً.

من الواضح أنّ حزم جميلة وثقتها المستفزّة بنفسها أذهلا دانيار، فراح ينظر إليها بشيءٍ من العداء، ولكن بإعجابٍ مكتوم في الوقت نفسه، وهو يزمّ أسنانه في فتور. وحين رفع أحد أكياس الحبوب من فوق الميزان وحمله إلى العربة بصمت، انقضّت عليه جميلة موبّخةً تقول:

- ما هذا، أسينهك كلٌّ منا نفسه على هذا النحو؟ لا يا صديقي، هذا لن ينفع، هيا، أعطني يدك! هيه، "كيتشيني بالا"، ما لك تقف مكتوف اليدين، اصعد إلى العربة وكدّس الأكياس!

ثم أمسكت جميلة بيد دانيار بنفسها، وحين رفعا كيساً، وأيديهما متشابكة، احمرّ المسكين من الخجل. وبعد ذلك، كلّما رفعا أحد الأكياس، وواحدهما يشدّ على يد الآخر بقوة ويكاد رأساهما يتلامسان، كنت ألحظ مدى حرج وارتباك دانيار، وكيف يعضّ على شفتيه بشدّة، وكيف يحرص على عدم النظر إلى وجه جميلة. أما جميلة، ورغم ذلك كله، فبدت وكأنها لا تلحظ شريكها، فكانت

تتبادل النكات مع الوزّانة. وبعد تحميل العربات، وإمساكنا بالأعنّة، غمزت جميلة بعينها بمكر وقالت وهي تضحك:

- هيه أنت، ما اسمك، أليس دانيار؟ لك مظهر الرجال فهيّا، سر في المقدّمة!

ومرة أخرى حرّك دانيار عربته من مكانها صامتاً، فقلت في نفسي: "يا لك من شخص خجول علاوةً على ذلك أيها البائس!".

كانت الطريق أمامنا طويلة، إذ كان علينا أن نقطع عشرين كيلومتراً في السهب، ثم نجتاز الممر الجبلي لنصل محطة القطار. والحسنة الوحيدة أن الطريق حتى المحطة كانت تمرّ أسفل الجبل، وهذا لا يُنهك الخيول.

كانت قريتنا كوركوريو ممتدة على ضفتي النهر، على سفوح الجبال العالية، وصولاً إلى الجبال السود نفسها. وإلى حين دخولنا الممر الجبلي تبقى القرية، بأحراجها الداكنة اللون، على مرمى النظر طوال الوقت.

كان يتسنّى لنا القيام برحلة واحدة فقط في اليوم. كنا نغادر في الصباح ونصل المحطة بعد الظهيرة.

كانت الشمس تصلينا بلا رحمة، وكان الازحام شديداً في المحطة ويتعذر المرور: عربات كبيرة، عربات صغيرة بعجلتين عليها أكياس، قادمة من الوادي كلّه، حمير وثيران محمّلة قادمة من الكولخوزات الجبلية النائية، يسوقها صبية ونساء، سمر الوجوه، في ثياب رثّة بالية، بأقدامهم الحافية التي هشّمتها حجارة الطريق، وبشفاههم المشقّقة المدمّاة من القيظ والغبار.

على بوّابة "مستودع الحبوب" عُلّقت يافطة قماشية كُتب عليها: "كل سنبلة قمح - إلى الجبهة!". وفي الفناء هرج ومرج، وتدافع وصرخات سائقي البهائم.

وعن كثب، وراء حاجزٍ واطئ، تروح وتغدو قاطرة وهي تنفث خَبَث غاز الفحم، مطلقةً سحابةً كثيفة من الدخان الشديد الحرارة، والقطارات تمرّ بجوارها بزمجرةٍ تصمّ الآذان، والجمال تئطُّ[1] بحنقٍ واستماتة، ممزقةً أحناكها المزبدة، رافضةً النهوض.

في المستودع، تحت السقف الحديدي المحمّى، تلال من الحبوب، فكان لا بدّ من الصعود بالأكياس عبر المرقاة الخشبية إلى ما تحت السقف مباشرةً. قلة الهواء الناتجة عن القشّ والغبار كانت تخنق الأنفاس.

يصرخ من الأسفل أحد متسلّمي القمح وعيناه محمرّتان من قلّة النوم:

- هيه، يا فتى، اسمعني! احمله إلى فوق، إلى أعلى مكان! - ويهدّد بقبضته وينفجر بالسباب.

ما له يشتم هكذا؟ فنحن نعرف إلى أين ينبغي حمل الأكياس، وإننا نحملها إلى هناك فعلاً. فنحن ننقل هذا القمح على أكتافنا من الحقول، من حيث زرعه وحصده الشيوخ والنساء والأطفال حبةً حبة؛ وحيث الآن، في موسم الحصاد الحارّ هذا، يكابد سائق الحاصدة مع حاصدته الخربة التي أكل الدهر عليها وشرب؛ وحيث ظهور النساء مقوّسةً دوماً على المناجل الحارقة؛ وحيث تلتقط أيدي

---

١ - من "الأطيط": صوت الجمل.

الأطفال الصغيرة كلّ سنبلةٍ تسقط سهواً.

ما زلت أذكر حتى الآن كم كانت الأكياس التي حملتها على كتفَي ثقيلة. هذا العمل ينهك أشدّ الرجال بأساً. كنت أرتقي صعوداً ألواح المرقاة التي تصرّ وتنحني، عاضّاً على طرف الكيس بأسناني باستماتة فقط حتى لا يفلت مني. كنت أختنق بالغبار، والكيس يُثقل على أضلاعي، وأمام عينَي تتراقص "نجوم الظهر". وحين كانت قواي تخور في منتصف الطريق، وأشعر أن الكيس سينزلق عن ظهري ولا بدّ، كثيراً ما كانت تراودني الرغبة في إلقائه عن ظهري والتدحرج معه إلى الأسفل. ولكن كان خلفي أناس، هم أيضاً يحملون الأكياس، وهم من عمري، كذلك فتية، أو نساء لديهن أولاد في سنّي. ترى لولا الحرب أكان سيسمح لهم بحمل هذه الأحمال؟ لا، لم يكن يحق لي التراجع ما دامت النساء يقمن بنفس العمل. فها هي جميلة في الأمام، مشمّرةً ثوبها أعلى ركبتيها، وإني أرى كيف تتوتر عضلات ساقيها السمراوين الجميلتين القوية، وأرى مدى الجهد الذي تبذله للإبقاء على تماسك جسدها الغضّ، منحنيةً بليونة تحت ثقل الكيس. أحياناً وحسب تتوقف جميلة، وكأنها تشعر أنّ قواي تخور مع كل خطوة أخطوها.

- تماسك يا "كيتشيني بالا"، فلم يبقَ إلاّ القليل.

هي نفسها صوتها مبحوح، مخنوق.

بعد أن نفرغ الأكياس ونعود أدراجنا، كان يتفق لنا أن نمر بدانيار. كان يلتقي المرقاة، وهو يعرج قليلاً، بخطىً قوية موزونة، وحيداً وصامتاً كعادته، وحين يصير بمحاذاتنا كان يرمق جميلة بنظرةٍ كئيبة

مضطرمة. أما هي فكانت تستقيم بظهرها المتعب وتسوّي ثوبها المدعوك. كان ينظر إليها على هذا النحو في كل مرة، وكأنه يراها لأول مرة، بينما ظلت جميلة لا تلحظ وجوده.

على كلٍ، هكذا كانت تجري الأمور: كانت جميلة إما تسخر منه أو لا تلتفت إليه مطلقاً، وكان هذا وقفاً على مزاجها. فمثلاً، بينما نسير في الطريق، فجأةً يخطر لها أن تصيح بي: "هيا انطلق!" وترمح بالخيول خبباً وهي تصيح وتلوّح بالسوط فوق رأسها، فألحق بها، ونتجاوز دانيار تاركين إياه في سحبٍ كثيفة من الغبار لم تنقشع إلا بعد فترة طويلة. ورغم أن ذلك كان من قبيل المزاح، فإن قلّة من الناس تتقبّله. لكن تبيّن أن دانيار لم ينزعج. فحين مررنا بمحاذاته راح ينظر إلى جميلة، التي كانت تقهقه وهي واقفة على العربة، بإعجابٍ متجهّم. وحين التفتُّ رأيت أن دانيار ظل ينظر إليها حتى عبر سحابة الغبار، وكانت في نظرته طيبة وسماحة، لكنني لمحت فيها أيضاً شوقاً خفيّاً عنيداً.

لكن لا سخرية جميلة ولا لامبالاتها لم تكونا تخرجان دانيار عن طوره على الإطلاق، وكأنه قد أقسم أن يحتمل كل شيء. وكنت في البدء أشفق عليه، وقلت لجميلة مراراً:

– ما لك تسخرين منه يا زوجة أخي، فهو بالغ الطيبة!

فكانت جميلة تقول وهي تضحك وتلوّح بيدها:

– تباً له! لا أقصد شيئاً، أمزح معه وحسب. لن يحدث شيء لهذا المتجهّم العبوس!

بعد ذلك صرت أنا أيضاً أمازح دانيار وأسخر منه ليس أقل من

جميلة. فقد بدأت تقلقني نظراته المحملقة الغريبة، وكيف ينظر إليها حين ترفع الكيس إلى كتفيها بنفسها! والحقيقة أن جميلة كانت لافتة للنظر، وسط هذه الجلبة والزحام وهذا الهرج والمرج الصاخب في باحة المحطة، بحركاتها الدقيقة الواثقة ومشيتها الخفيفة، كما لو أن هذا كله يجري في مساحةٍ رحبة.

ولم يكن في الإمكان عدم ملاحظتها. فلكي تتناول كيساً من على ظهر العربة، كانت جميلة تمطّ قامتها، ثم تنحني مائلةً وتضع كتفها تحت الكيس، رافعةً رأسها إلى الخلف، فتتعرّى عنقها الجميلة، وجديلتاها المسمرّتان من الشمس تكادان تلامسان الأرض. كان دانيار يتوقف عن العمل، كأنما يأخذ قسطاً من الراحة، ويشيّعها بنظره حتى البوابة. لعله كان يظنّ أنّ أحداً لا يلحظه، لكنني كنت ألحظ كل شيء، وبدأ هذا الأمر يزعجني، بل وحتى يجرح مشاعري: فدانيار بالذات لم يكن باستطاعتي مطلقاً اعتباره جديراً بجميلة.

قلت لنفسي: "إذا كان حتى هو يختلس النظر إليها، فماذا عن الآخرين!". شعرت بالسخط والامتعاض في كياني كله، وراحت أنانيتي الصبيانية، التي لم أكن قد تحررت منها بعد، تضطرم بغيرةٍ متأججة. فالأطفال يغارون دائماً على أقاربهم من الغرباء. وبدلاً من الشفقة على دانيار، صرت الآن أشعره نحوه بالكراهية والنفور بحيث كنت أشعر بالشماتة والتشفّي حين يسخرون منه.

غير أن ألاعيبنا – أنا وجميلة – انتهت في أحد الأيام بصورةٍ محزنةٍ جداً.

بين الأكياس، التي كنا ننقل بها الحبوب، كان هناك كيس من الخيش

هائل الحجم يزن سبعة بودات[1]. عادةً كنا نحن الاثنين معاً نتعامل معه، إذ لم يكن في مقدور أحدنا بمفرده حمله. وهكذا قررنا في البيدر أن نمازح دانيار، فوضعنا هذا الكيس الضخم في عربته وكدّسنا فوقه أكياساً أخرى. وفي الطريق هرعنا، أنا وجميلة، إلى بستان أحدهم في قرية روسية، وقطفنا تفاحاً ونحن نضحك طوال الطريق: كانت جميلة ترشق دانيار بالتفاح. بعد ذلك، وكالعادة، تجاوزناه، مثيرين سحابةً من الغبار. وقد لحق بنا بعد الممر الجبلي، عند تقاطع الطريق والسكة الحديد: كان القطار يمرّ. ومن هناك سرنا معاً إلى المحطة، وحدث أن نسينا تماماً أمر الكيس الذي يزن سبعة بودات، ولم نتذكره إلا بعد الانتهاء من إفراغ حمولتنا. لكزتني جميلة بمرفقها بشقاوة وأومأت برأسها باتجاه دانيار. كان يقف في العربة ينظر إلى الكيس بقلق، ومن الواضح أنه كان يفكّر كيف يتدبّر أمره، ثم تلفّت حوله، وحين لمح جميلة وهي تختنق من الضحك احمرّ بشدّة: لقد أدرك حقيقة الأمر.

صاحت جميلة:

– شدّ بنطالك وإلاّ فقدته في منتصف الطريق!

رمقنا دانيار بنظرةٍ حانقة، وقبل أن نتمكن من ملاحظة كيف جرّ الكيس من قعر العربة كان قد وضعه على حافتها، ثم وثب من العربة ممسكاً الكيس بإحدى يديه، وبعد ذلك أنزله على ظهره وسار به. في البدء تظاهرنا أن لا شيء مميّز في ذلك، وبديهي أنّ الآخرين أيضاً لم يلحظوا شيئاً: شخص يحمل كيساً، مثله مثل الجميع. لكن حين بلغ دانيار المرقاة لحقت به جميلة.

١ – البود وحدة روسية للوزن تعادل ١٦,٣٨ كغ.

- إرمِ الكيس، كنت أمزح.
- ابتعدي! - قال بصوتٍ متقطّع وشرع يرتقي المرقاة.
- أُنظر، إنه يحمله. - قالت جميلة وكأنها تبرّر موقفها.
ظلت تضحك بخفوت، لكنّ ضحكها بات مصطنعاً، كأنما كانت ترغم نفسها على الضحك.
لاحظنا أنّ دانيار صار يعرج بشدّة على رجله المصابة. كيف لم يخطر لنا هذا من قبل؟ إلى الآن لا يمكنني أن أغفر لنفسي تلك المزحة الحمقاء، فقد كانت من ابتكاري، أنا الأحمق!
صاحت به جميلة من خلال ضحكها المنقبض:
- إرجِع!
لكنّ دانيار لم يعد قادراً على الرجوع، إذ كان هناك من يسير خلفه.
لا أذكر بوضوح ما جرى لاحقاً. رأيت دانيار منحنياً تحت ثقل الكيس الضخم، ورأسه منكّس إلى الأرض، عاضّاً على شفتيه، يسير ببطء وهو يخطو برجله المصابة بحذر. واضح أن كل خطوة يخطوها كانت تسبّب له ألماً شديداً، فكان يرفع رأسه ويتسمّر مكانه لهنيهة، وكلما ارتقى المرقاة أكثر كان يزداد تأرجحه من جانب إلى آخر. كان الكيس يجعله يترنّح. وبلغ بي الخوف والخجل مبلغاً بحيث جفّ حلقي. تجمّدت من الخوف وشعرت، بكياني كله، بثقل حمله وبألمه الذي لا يُطاق في رجله المصابة. ها هو يترنّح ثانيةً ويرفع رأسه، فدارت الدنيا أمامي وحلّت العتمة وأخذت الأرض تميد تحت قدمي.
أفقت من ذهولي حين شدّ أحدهم فجأةً بقوة على يدي حتى كاد

بكسر عظامي. لم أتعرّف جميلة على الفور، فقد كانت بيضاء بيضاء، وتوسّعت حدقتا عينيها الجاحظتين إلى آخرهما، وشفتاها لا تزالان ترتعشان بتأثير ضحكها قبل قليل. وهنا، ليس نحن فقط بل كل من كان موجوداً في "هنغار" مستودع الحبوب، هرعنا جميعاً إلى قاعدة المرقاة. خطا دانيار خطوتين أخريين محاولاً تسوية وضعية الكيس على ظهره... وراح يتهاوى على ركبته ببطء. غطّت جميلة وجهها بيديها وصرخت به:

- ألقِ به، ألقِ بالكيس!

لكنّ دانيار، لأمرٍ ما، لم يلقِ عنه الكيس، رغم أنه كان بمقدوره أن يهيله من على جانب المرقاة حتى لا يصطدم بالذين خلفه. حين سمع دانيار صوت جميلة انتصب واقفاً على قدميه وخطا خطوةً أخرى، ثم تأرجح ثانيةً. صاح به متسلّم الحبوب:

- هيا ألقِ به يا ابن الكلب!

لكنّ دانيار تماسك هذه المرة أيضاً. همس أحدهم في يقين:

- لا، لن يلقي به!

وبدا أن الجميع، سواء الذين كان يصعدون المرقاة أم الذين في الأسفل، قد أدركوا أنه لن يلقي الكيس إلاّ إذا سقط هو والكيس معاً. ساد صمت القبور. ووراء الجدار، في الخارج، تعالى صفير قاطرة متقطّع.

أما دانيار فقد واصل الصعود، مترنّحاً، كالأصمّ، تحت السقف الحديدي المحمّى، وألواح المرقاة تنثني تحت قدميه. كان يفقد توازنه كل خطوتين، فيتوقّف ويستجمع قواه من جديد ثم يتابع

الصعود. أولئك الذين كانوا يسيرون وراءه كانوا يحاولون مسايرة سيره، فكانوا يتوقفون حين يتوقف، الأمر الذي أنهك الناس وجعل قواهم تخور، لكن لم يتذمّر أيٌّ منهم ولم يشتمه أحد. كان الناس يصعدون المرقاة مع أحمالهم كما لو أنهم مربوطون معاً بحبلٍ غير مرئيّ، وكأنهم يسيرون في دربٍ زلقٍ خطر بحيث أنّ حياة أيٍّ منهم تتوقف على حياة الآخر. كان في صمتهم المتواطئ وتأرجحهم المتماثل إيقاعٌ ثقيلٌ وحيد. خطوة، فخطوة أخرى وراء دانيار، فثالثة. يا للتعاطف الذي كانت تنظر به إحدى النساء إلى دانيار، وهي تسير خلفه وتصرّ على أسنانها، ويا للضراعة! هي نفسها ارتخت ركبتاها، لكنها كانت تصلّي من أجله.

لم يتبقّ سوى القليل، فالقسم الصاعد من المرقاة على وشك الانتهاء. لكنّ دانيار تعثّر ثانيةً، فساقه المصابة لم تعد تطاوعه، وسيسقط فوراً لا محاولة إن لم يُفلت الكيس.

- هيا اركض! اسنده من الخلف! - صرخت بي جميلة، بينما هي نفسها مدّت يدها في ارتباك وذهول وكأنّ في مقدورها مساعدة دانيار.

انطلقت أرتقي المرقاة، شاقّاً طريقي بين الناس والأكياس، وهرعت إلى دانيار. رمقني من تحت مرفقه. كانت العروق منتفخةً على جبهته المسمرّة المبللة بالعرق، وعيناه المحتقنتان بالدم تضطرمان بنار الغضب. أردت أن أسند الكيس.

- انقلع! - حشرج دانيار مهدّداً وتحرّك إلى الأمام.

حين أخذ دانيار ينزل، وهو يتنفس بصعوبة ويعرج، كانت يداها تتدليان مثل سَوطين. راح الجميع يفسحون له الطريق صامتين، لكنّ

متسلّم الحبوب لم يتمالك نفسه وصاح به:

- ما لك يا فتى، أجننت؟ أتحسبني لست إنساناً، أما كنت لأسمح لك بتفريغ الكيس في الأسفل؟ لِمَ تحمل أكياساً ثقيلةً كهذا؟

- هذا شأني، - ردّ دانيار بصوتٍ خافت ثم بصق جانباً وتوجّه نحو عربته. أما نحن فلم نجرؤ على رفع أبصارنا، فقد شعرنا بالخجل وآلمنا أنّ دانيار قد حمل مزحتنا السخيفة على محمل الجد.

سرنا الليل كله صامتين. فيما يتعلق بدانيار، هذه هي طبيعته، لذا لم نستطع معرفة ما إذا كان مستاءً منّا أم أنه نسي كل شيء. لكن كان الأمر يثقل علينا، وكان ضميرنا يؤنّبنا.

في الصباح، عندما كنّا نحمّل العربات في البيدر أمسكت جميلة هذا الكيس المشؤوم ووضعت قدمها على طرفه ومزّقته بصرير ورمته عند قدمي الوزّانة المدهوشة قائلةً:

- هاك كيسكِ! قولي لرئيس العمال ألاّ يدسّ أكياساً كهذا مرةً أخرى!

- ماذا تفعلين؟ ماذا أصابك؟

- لا شيء!

طوال اليوم التالي لم يُظهر دانيار ما يدلّ على شعوره بالانزعاج، فقد ظلّ متّزناً وصامتاً، سوى أنه كان يعرج أكثر من المعتاد، لا سيما حين كان يحمل الأكياس. واضح أنه ضغط على مكان إصابته بقوة البارحة، وكان هذا يذكّرنا طوال الوقت بذنبنا تجاهه. لو أنه ضحك

أو مازحنا لخفّ الأمر علينا وجعلنا ننسى إساءتنا.

جميلة أيضاً كانت تحاول التظاهر بأنّ شيئاً لم يحدث. إنها أبيّة، لكنني كنت أرى أنها ليست على ما يرام طوال اليوم، رغم أنها كانت تضحك.

عدنا من المحطة في وقتٍ متأخر. كان دانيار يسير في المقدمة، وكان الليل يتراءى رائعاً. ومن لا يعرف ليالي آب بنجومها البعيدة والقريبة في الوقت نفسه؛ المتلألئة بصورة غير عادية، حيث تُرى كل نجمة على حدة! ها هي إحداها، وكأنّ حوافها مغطاة بالجليد، تتلألأ كلها بأشعة جليدية وتنظر بدهشة بريئة إلى الأرض من السماء المعتمة. كنا نعبر الممر الجبلي، وقد تأمّلتها طويلاً. كانت الخيول تخبّ متلهفةً الوصول إلى البيت، وكانت الحصى تصرّ تحت عجلات العربات. كانت الريح تحمل غبار طلع الشيح اليانع المرّ ورائحة الحبوب الناضجة الخاملة التي بالكاد تبلغنا، وهذا كله، ممزوجاً برائحة القار ورائحة سيور الخيل المتعرّقة، كان يسبّب دواراً خفيفاً في الرأس.

من جهة كانت تظلّلنا الصخور الناتئة كنبات العليق فوق الطريق، ومن الجهة الأخرى، عميقاً في الأسفل، كان يهدر نهر كوركوريو الصاخب في أجمات أشجار الصفصاف وشجيرات الحور البرّي. وبين الحين والآخر، في مكانٍ ما خلفنا، كانت قطارات مسرعة تعبر الجسر بزمجرةٍ متواصلةٍ حادة، وتبتعد مخلّفةً وراءها قرقعة عجلاتها لفترة طويلة.

كان أمراً مبهجاً السير في الطقس المنعش المائل إلى البرودة

ومشاهدة ظهور الخيول المتمايلة والإصغاء إلى ليل آب وتنسّم روائحه. كانت جميلة تسير أمامي بعربتها وهي تنظر حولها، مفلتةً الأعنّة، وتشدو بأغنيةٍ ما بصوتٍ خافت. كنت أدرك أنّ صمتنا يثقل عليها. ففي ليلةٍ كهذه كان يستحيل الصمت؛ في ليلةٍ كهذه يرغب المرء في الغناء!

وكانت جميلة تغنّي. ولعلّها كانت تغنّي لرغبتها في إعادة علاقتنا بدانيار إلى أريحيتها السابقة، وللخلاص من شعورها بالذنب تجاهه. كان صوتها رنّاناً، حماسياً، وكانت تغني أغنيات مألوفة في القرية، من مثل: "سألوّح لك بالمنديل الحرير" أو "رحل حبيبي بعيداً". كانت تعرف أغنيات كثيرة، وكانت تغنيها ببساطة وصدق، فكان سماعها يسرّ النفس. لكنها توقفت فجأةً عن الغناء وصاحت بدانيار:

– هيه أنت، يا دانيار، غنِّ شيئاً! ألست فارساً؟

– غنّي يا جميلة غنّي! إنني أصغي إليكِ، كلّي آذان صاغية! – ردّ دانيار في ارتباك وشدّ أعنة الخيول.

– وهل تظن أن لا آذان لنا أم ماذا! كما تشاء، لا تريد، حسناً! – وراحت جميلة تغنّي من جديد.

من يدري لمَ طلبت منه أن يغنّي! ربما بلا سبب، ولعلها أرادت أن تدفعه إلى الكلام. الأرجح أنها أرادت التحدث إليه لأنها، بعد قليل، صاحت به ثانيةً:

– قل لي يا دانيار، هل وقعت في الحب يوماً؟ – وضحكت.

لم يردّ دانيار. وجميلة أيضاً صمتت.

قلت في سرّي ساخراً: "وجدت من تطلب منه الغناء!".

عند الجدول الذي يقطع الطريق خفّفت الخيول من سيرها، مقرقعةً بحدواتها على الحجارة الفضية البليلة. وبعد أن عبرنا المخاضة ساط دانيار الخيول وعلى حين غرّة أخذ يغنّي بصوتٍ محبوسٍ رجراج جرّاء الحُفر في الطريق:

جبالي، الجبال البيضاء الزرقاء،

أرض أجدادي وآبائي!

وفجأةً تلعثم وراح يسعل، إلا أنه أنشد البيتين التاليين بصوتٍ منشرحٍ عميق، مع شيءٍ من البحّة في الحقيقة:

جبالي، الجبال البيضاء الزرقاء،

يا مهدي...

وهنا تلعثم ثانيةً، كأنما أفزعه شيءٌ ما، وصمت.

تخيّلت حقاً مدى ارتباكه، ولكن حتى في هذا الغناء الوجل المتقطّع كان هناك تأثّر غير عادي، ولا شك أنّ صوته كان جميلاً، بحيث لا يصدّق المرء أنه دانيار نفسه، فلم أتمالك نفسي عن القول:

- يا للروعة!

بل إن جميلة هتفت:

- أين كنت حتى الآن؟ هيا غنِّ، غنِّ كما ينبغي!

لاحت نهاية الشقّ الجبلي أمامنا - إنه مخرج الممر الجبلي إلى الوادي. ومن هناك كانت تهبّ ريحٌ خفيفة. شرع دانيار يغنّي من جديد، وقد بدأ الغناء بوجلٍ وخفر، لكنّ صوته أخذ يشتدّ شيئاً فشيئاً حتى ملأ الشقّ الجبلي كله وتردّد رجع صداه عن الصخور البعيدة.

كان أشدّ ما أدهشني مدى الحماسة والحرارة في اللحن. لم أدرِ ماذا أسمّيه، والآن أيضاً لا أدري، أو الأدقّ لا يمكنني أن أحدّد ما إن كان الصوت فقط أم شيءٌ آخر أكثر أهميةً يخرج من أعماق نفس الإنسان، شيء قادر على إحداث تأثير كهذا في المرء، قادر على بعث أخفى سرائر الإنسان.

فقط لو استطيع تذكّر أغنية دانيار، ولو إلى حدٍّ ما! إذ كانت بلا كلمات تقريباً؛ كانت تكشف بلا كلمات النفس الإنسانية الكبيرة. لم أسمع قط، لا قبل ذلك ولا بعده، أغنيةً كهذه: فهي لم تكن تشبه الأغاني القرغيزية، ولا الكازاخية، وإنما كان فيها من هذه وتلك. كانت موسيقى دانيار تشتمل على أفضل نغمات الشعبين الشقيقين وتنشدها، على طريقتها، في أغنيةٍ واحدةٍ فريدة. كانت تلك الأغنية أغنية الجبال والسهوب، فتارةً كانت تعلو برنين كجبال قرغيزيا، وطوراً تنبسط برحابة كالسهب الكازاخي.

كنت أصغي وأقول في نفسي متعجباً: "هذا هو دانيار إذن! من كان يظنّ!".

كنّا قد صرنا في السهل، نسير في دربٍ سهلة مطروقة، وكان غناء دانيار الآن يتّسع مداه، وبمرونةٍ مذهلة كانت ألحان جديدة تحلّ محل أخرى. أيعقل أنّ مخزونه الغنائي بهذا الغنى؟ ماذا جرى له؟ وكأنما كان ينتظر يومه وحسب، لحظته وحسب!

وفجأةً صارت غرابة أطواره، التي كانت تثير استغراب وسخرية الناس، مفهومةً لي – شروده، حبّه للعزلة، وجومه وصمته.

فهمت الآن سبب جلوسه أمسياتٍ بأكملها على منطرة الحراسة،

وسبب انفراده بنفسه في الليل عند النهر، ولماذا كان يرهف سمعه دائماً لأصوات لا يسمعها الآخرون، ولماذا كانت عيناه تلمعان فجأةً ويرتفع حاجباه المتنبّهان. لقد كان شخصاً عاشقاً بعمق. وشعرت أنه ليس عاشقاً شخصاً آخر ببساطة، بل كان عشقاً مختلفاً؛ كان حباً عظيماً للحياة، للأرض. نعم، كان يختزن حبه هذا في نفسه، في موسيقاه، كان يعيشه. لم يكن في مقدور شخصٍ خليّ البال أن يغنّي على هذا النحو مهما كان صوته جميلاً.

حين كان صدى الأغنية الأخيرة يخفت كانت تتلوها نفحةٌ جديدة تبدو كأنها توقظ السهب الغافي. وكان السهب يصغي بامتنان إلى المغني الذي يلاطفه بغناءٍ عزيزٍ عليه. كانت سنابل القمح الناضجة الرمادية المائلة إلى الزرقة تتماوج باتّساع، في انتظار الحصاد، وأنوار الفجر الأولى تتراكض عبر الحقول. كان حشدٌ هائل من أشجار الصفصاف العتيقة تخشخش بأوراقها عند الطاحونة، ووراء النهر كانت نيران مخيّمات الحصادين على وشك الانطفاء، وكان ظلّ أحدهم يعدو خبباً بصمت على ضفة النهر في اتجاه القرية، فكان يختفي في البساتين تارةً ويظهر تارةً. كانت الريح تحمل من هناك رائحة التفاح، وعبير رحيق الذرة المزهرة برائحة الحليب، ورائحة الروث الجاف الدافئة.

ظل دانيار يغني طويلاً ذاهلاً عن نفسه، وكان ليل آب المفتون يصغي إليه في سكينة. بل حتى الخيول كانت تسير بخطىً موقّعةٍ منذ وقتٍ طويل كأنما تخشى الإخلال بهذه الأعجوبة.

وفجأةً، حين بلغ دانيار النغمة الحادّة الأعلى قطع أغنيته وانطلق

بالخيول خبباً وهو يصرخ فيها. ظننت أن جميلة أيضاً ستلحق به، فتجهّزت أنا أيضاً، لكنها لم تفعل. فقد ظلت جالسةً، كما كانت، ورأسها متدلٍ على كتفها، كأنما كانت لا تزال تصيخ السمع إلى أصواتٍ تحلّق في مكانٍ ما في الجو. سبقنا دانيار، ونحن لم ننبس بكلمةٍ واحدة حتى القرية. ولم نكن بحاجة إلى الكلام، إذ لا يمكن للمرء أن يعبّر دائماً عن كل شيء بالكلمات...

منذ ذلك اليوم بدا أنّ هنالك ما تغيّر في حياتنا. صرت أتوقّع دائماً حدوث شيء جيد ومأمول. كنا نذهب بالعربات إلى البيادر منذ الصباح الباكر، ثم نقصد المحطة، ونحن لا نصدّق متى نغادر كي نستمع إلى أغنيات دانيار في طريق العودة. كان صوته يتغلغل فيّ ويلاحقني في كل خطوة: في الصباحات، كنت أركض معه عبر حقل البرسيم النديّ البليل قاصداً الخيول المقيّدة، وكانت الشمس تهرع للقائي ضاحكةً من وراء الجبال. كنت أسمع صوته في الخشخشة الخفيفة لمطر الحبوب الذهبي الذي تذروه مذاري العجائز في الريح، وفي التحليق الدائري لحدأةٍ وحيدةٍ في سماء السهب... كانت موسيقا دانيار تُخيّل لي في كلِ ما أرى وأسمع.

وفي المساء، حين كنا نعبر الممر الجبلي، كان يبدو لي دائماً أنني أُحمَل إلى عالم آخر. كنت أصغي إلى دانيار مغمض العينين، فترتسم أمامي لوحاتٌ مألوفة مدهشة، عزيزة عليّ منذ الطفولة: تارةً تسبح في السماء، فوق أكواخ القبيلة، على ارتفاع طيران اللقالق، سحب الربيع اللطيفة الضبابية الزرقاء؛ أو تتناهى عبر الأرض الهادرة أصوات حوافر وصهيل قطعان الخيول في المراعي الصيفية، والأمهار الفتية بأعرافها

المرسلة وبعيونها السود ببريقها الوحشي وهي تتراكض حول أمّاتها باعتزازٍ ودهشة؛ وأحياناً تنتشر قطعان الغنم على الروابي كالحمم البركانية، أو يتدفق شلالٌ من الصخر يعمي العيون بفورانٍ عشوائي ناصع البياض؛ وأحياناً في السهب، وراء النهر، تهبط الشمس في الأجمات، ويلوح في البعيد فارسٌ وحيد عند حافة الأفق المتوهّجة يرمح على حصانه كأنما يطارد الشمس، يكاد يلمسها بيده، وبدوره يغوص في الأجمات وفي شفق الغروب.

السهب الكازاخي وراء النهر مترامي الأطراف. لقد باعد بين الجبال من الجانبين ويمتد متجهّماً مقفراً. لكن في ذلك الصيف المشهود، حين نشبت الحرب، اندلعت النيران في السهب وخيّمت عليه سحب الغبار الحار التي أثارتها قطعان الخيول العسكرية، وكان الخيّالة يرمحون بخيولهم في الأنحاء كلها. وإني أذكر كيف صرخ فارسٌ كازاخي من الضفة المقابلة بصوتٍ حُنْجُري كأصوات الرعاة:

– اعتلوا السروج أيها القرغيز: لقد وصل العدو! – وانطلق ينهب الأرض نهباً، متابعاً طريقه وسط زوابع غبار السراب القائظ.

أنهض السهب الجميع على قدمٍ وساق، وبهديرٍ مكفهرٌ مهيب زحفت طلائع فيالقنا الخيّالة من الجِبال وفي الوديان. قرقعت آلاف الرُّكُب[١]، وراح آلاف الفرسان يجولون السهب بأعينهم، وكانت البيارق الحمر تخفق على الصواري في المقدمة، وفي الخلف، وراء غبار حوافر الخيل، كان نواح الزوجات والأمهات الجَزِع المتعالي

١ – الرُّكُب: الجمع من رِكاب "الخيل".

يزلزل الأرض: "ليكن السهب في عونكم، لتكن في عونكم روح بطلنا الجبّار ماناس!".

وهناك، في الدرب الذي سلكه الناس إلى الحرب، ظلّت مرارة آثارهم...

وعالم الجمال والشجن الأرضي هذا فتحه دانيار أمامي بغنائه. أين تعلّم ذلك، ممّن سمع هذا كله؟ كنت أدرك أنْ ليس في مقدور أحد أن يحبّ وطنه على هذا النحو إلاّ مَنْ حنّ إليه بكل جوارحه سنين طويلة، ذاك الذي عانى جرّاء هذا الحب. حين كان يغنّي كنت أراه، هو نفسه، ذلك الولد الصغير المتشرّد في دروب السهوب. ربما آنذاك بالتحديد نشأت في روحه الأغنيات عن الوطن! أو ربما حين كان يقطع المسافات وسط نيران الحرب!

حين كنت أصغي إلى دانيار كنت أريد أن أنكبّ على الأرض وأعانقها بقوة كالأطفال، فقط لأن الإنسان يستطيع أن يحبها إلى هذا الحد. وحينذاك شعرت لأول مرة بشيءٍ جديد يستيقظ في داخلي، شيء لم يكن في مقدوري بعد أن أسمّيه، لكنه كان شيئاً لا يُقهر. كان ذاك الشيء هو الحاجة إلى التعبير عن نفسي، نعم التعبير، ليس فقط أن أرى العالم وأشعر به بنفسي، بل وأن أنقل إلى الآخرين رؤيتي وأفكاري وانطباعاتي، وأن أحكي للناس عن جمال أرضنا بالإلهام الذي يجيد دانيار إلهامه. كنت متسمّراً مكاني من هلع وفرح لامتناهيين أمام شيءٍ ما مجهول، لكنني لم أكن أدرك آنذاك بعد بأنّ عليّ تناول فرشاة الرسام بيدي.

أحببت الرسم منذ طفولتي. كنت أستنسخ لوحات صغيرة من

كتابي المدرسي، وكان رفاقي يقولون إن نسختي تطابق الأصل بمنتهى الدقة. وكان معلمو المدرسة أيضاً يثنون عليّ عندما كنت أقدّم لهم رسومي من أجل جريدة الحائط. لكن الحرب اندلعت بعد ذلك، والتحق إخوتي بالجيش، وأنا تركت المدرسة وذهبت أعمل في الكولخوز كأترابي جميعاً. نسيت الألوان والفُرَش وظننت أنني لن أتذكّرها ثانيةً مطلقاً. لكنّ أغنيات دانيار أثارت الاضطراب في نفسي. صرت أسير وكأني في حلم، وصرت أنظر إلى العالم بعينين دهشتين كما لو كنت أراه لأول مرة.

ويا لتبدّل جميلة المفاجئ! كأنما لم يبقَ شيء من تلك الفتاة الضاحكة الممتلئة حياةً اللاذعة اللسان. فقد غمر حزن الربيع الصافي عينيها المطفأتين، وفي الطريق كانت تفكّر باستمرار في شيءٍ ما. تطوف على شفتيها ابتسامة غامضة حالمة، فقد كانت سعيدةً بشيءٍ جيد ما لا يعرفه سواها. كان يحدث أن تحمل كيساً على كتفيها وتبقى واقفةً على هذا النحو، وقد سيطر عليها خوف غير مفهوم، تماماً وكأنّ تياراً جارفاً يعترض طريقها ولا تدري ماذا تفعل: أتسير أم لا! كانت تتجنّب دانيار ولم تكن تنظر في عينيه.

في أحد الأيام، في البيدر، قالت له جميلة باستياءٍ واهنٍ معذّب:

- لو أنك تخلع قميصك العسكري. أعطني إياه لأغسله!

وبعد أن غسلت القميص في النهر نشرته لينشف، فيما جلست بجانب القميص وراحت تمسّده بكفيها بعناية لفترة طويلة وهي تتفحص كتفيه المهترئتين في نور الشمس، ثم هزّت برأسها وعادت تمسّده من جديد بهدوءٍ وحزن.

خلال تلك الفترة لم تضحك جميلة بصوتٍ عالٍ ضحكاً معدياً، ولم تلمع عيناها كما في السابق، سوى مرة واحدة. فقد مرّ بالبيدر نساء وفتيات وشبّان - وهم جنود قدامى كانوا في الجبهة - عائدين من تكديس البرسيم. فقال الشبّان وهم يهزّون مذاريهم مازحين:

- هيه يا بكوات، لا ينبغي لكم تناول خبز القمح وحدكم، ضيّفونا وإلا ألقينا بكم في النهر.

- لن تخيفونا بمذاريكم! سأجد ما أقدّمه لصديقاتي، أما أنتم فاكسبوه بعرق جبينكم! - ردّت جميلة بصوتٍ صدّاح.

- سنلقي بكنّ جميعاً في النهر إذن!

واشتبك الفتيان والفتيات وراحوا يدفعون بعضهم بعضاً إلى الماء وهم يصرخون ويزعقون ويضحكون.

- أمسكن بهم، اجررنهم، هيا! - كانت جميلة تصيح وتضحك أعلى من الجميع وهي تتملّص بسرعة وبراعة من المهاجمين.

لكن الغريب أنّ الشبّان لم يكونوا يرون سوى جميلة، فكان كلٌّ منهم يحاول الإمساك بها وضمّها إليه. وفجأةً أمسك بها ثلاثة شبّان وسحبوها إلى ضفة النهر.

- هاتِ قبلة وإلاّ رميناكِ في النهر!

- هيا لنؤرجحها!

تلوّت جميلة محاولةً التملّص، قهقهت، أرجعت رأسها إلى الوراء، واستنجدت برفيقاتها وهي تضحك. لكنهن كنّ يتراكضنَ على الضفة في هرج ومرج وهنّ يلملمن خُمرُهن عن سطح الماء. ووسط ضحكات الشبّان الودودة طارت جميلة إلى الماء. خرجت

جميلة من الماء بشعرٍ مبللٍ أشعث، لكن أكثر جمالاً ممّا كانت. كان ثوبها القطني المبلل ملتصقاً بجسمها، شافّاً عن وركيها المفتولين القويين وعن صدرها الفتيّ الغضّ. أما هي فلم تلحظ شيئاً وراحت تضحك وتتمايل وعلى وجهها المورّد تسيل مرحةً خيوطٌ من الماء.

ألحّ الشبان:

- هاتِ قبلة!

فقبّلتهم جميلة، لكنها طارت إلى الماء من جديد، ومن جديد راحت تضحك وتُرجع خُصَل شعرها المبللة الثقيلة بحركةٍ من رأسها.

أضحك لهو الفتية كل الذين في البيدر. فالشيوخ الذين كانوا يذرون القمح كانوا يلقون مجارفهم أرضاً ويمسحون دموعهم وتلمع التجاعيد في وجوههم المسمرّة بالفرح ومن الشباب المستعاد لبرهة. وأنا كنت أضحك من قلبي ناسياً، هذه المرة، واجبي الغيور في حماية جميلة من الشبّان.

الوحيد الذي لم يكن يضحك كان دانيار. وقد لحظته مصادفةً فلذتُ بالصمت. كان يقف وحيداً في طرف البيدر وقد باعد بين ساقيه، وبدا لي أنه سينطلق راكضاً في الحال وينتزع جميلة من أيدي الشبّان. كان لا يرفع عينيه عنها، ناظراً إليها بحزنٍ وإعجاب، وكان في نظرته فرحٌ وألم في آن.

نعم، كان جمال جميلة مصدر سعادته وشقائه في الوقت نفسه. حين كان الشبان يحضنونها، مجبرين إياها على تقبيلهم واحداً واحداً، كان يطأطئ برأسه ويقوم بحركة توحي أنه يهمّ بالمغادرة، لكنه لم يكن يغادر.

بيد أنّ جميلة أيضاً لحظته، فكفّت عن الضحك على الفور وغضّت من نظرها، وفجأةً كبحت جماح الشبّان الذين أطلقوا لأنفسهم العنان:

- كفاكم لعباً!

حاول أحدهم أن يحضنها، لكن جميلة دفعته قائلةً: توقّف! ودفعت الشاب، ثم رفعت رأسها وألقت نظرةً عابرةً مذنبةً باتجاه دانيار وهرعت تعصر ثوبها بين الشجيرات.

لم تكن كل حيثيات العلاقة بينهما واضحة بالنسبة إلي بعد، وأقرّ بأني كنت أخشى التفكير في ذلك. لكنني، لسببٍ ما، كنت أنزعج حين ألحظ أن جميلة تغدو حزينةً لكونها، هي نفسها، تتجنّب دانيار. لكان الأفضل لو أنها تضحك من دانيار وتمازحه كما في السابق. ولكن، في الوقت نفسه، كان يتملكني فرحٌ مبهم من أجلهما حين كنا نصغي إلى غناء دانيار أثناء عودتنا إلى القرية في الليالي.

كانت جميلة تعبر الممر الجبلي بالعربة، ثم تنزل منها في السهب وتتابع سيراً على قدميها. أنا أيضاً كنت أمشي على قدمَي، فهكذا أفضل: أن يمشي المرء في الطريق ويستمع إلى الغناء. في البداية كان كلٌّ منا يمشي إلى جوار عربته، لكننا، خطوةً تلو أخرى، ودون أن نلحظ ذلك، كنّا نقترب أكثر فأكثر من دانيار. كانت تجذبنا نحوه قوة غير مرئية، فقد كنا نرغب في رؤية تعابير وجهه وعينيه في العتمة... أيعقل أن الذي يغني هو نفسه دانيار المنعزل الكئيب!

وفي كل مرة كنت ألحظ جميلة، المسلوبة اللبّ والمتأثرة، وهي تمدّ يدها نحوه، لكنه لم يكن يرى ذلك، فقد كان ينظر إلى مكانٍ

بعيدٍ ما في الأعلى، سانداً قذاله بكفّه، متمايلاً من جهة إلى أخرى، فكانت يد جميلة تنزل لاشعورياً على درابزين العربة، فكانت تنتفض وتسحب يدها بقوة وتتوقف. كانت تقف في منتصف الطريق منكسة الرأس، مصدومةً، تتبعه بنظراتها طويلاً طويلاً، ثم تستأنف سيرها.

أحياناً كان يبدو لي أنني وجميلة يزعجنا معاً شعورٌ واحد غير مفهوم لكلينا. ولعل هذا الشعور كان مخفياً منذ فترة طويلة في نفسينا، وقد حان وقته الآن.

كانت جميلة تذهل عن نفسها أثناء العمل على الأقل، لكن في لحظات الاستراحة القليلة تلك، حين كنا نتأخر في البيدر، كانت لا تستقرّ على حال. كانت تتجول قرب الذين يذرون الحبوب وتمدّ لهم يد المساعدة، فكانت تقذف عالياً وبقوة بضع مذارٍ من القمح في الهواء، ثم ترمي المذراة من يدها فجأةً وتبتعد متوجهةً نحو أكداس القش، وهناك كانت تجلس في الظلّ وتدعوني إليها وكأنها تخشى الوحدة:

– تعال واجلس معي يا "كيتشيني بالا"!

كنت أنتظر دوماً أن تبوح لي بشيءٍ هام وأن توضح لي ما يقلقها، لكنها لم تكن تقول شيئاً. كانت تضع رأسي على ركبتيها بصمت، وهي ترنو إلى البعيد، و"تنكش" شعري الأشعث وتمسح وجهي بلطف بأصابعها المرتجفة الدافئة. وكنت أنظر إليها من الأسفل، إلى وجهها الممتلئ حزناً غامضاً وحنيناً، وكان يبدو لي أنني أتعرّف نفسي فيه. هي أيضاً كان هنالك ما يضنيها، ما اختزن في نفسها وينمو طالباً مخرجاً. وكانت تخشى ذلك. كانت تريد ولا تريد، في الوقت نفسه، إلى حدّ الألم، أن تعترف لنفسها بأنها عاشقة، تماماً

كما كنت أتمنى ولا أتمنى لو أنها تحب دانيار. فهي، في آخر الأمر، كنّة والدَي؛ إنها زوجة أخي.

لكنّ أفكاراً كهذه كانت تخطر لي لهنيهاتٍ فقط، فقد كنت أطردها. حينذاك كانت رؤية افترار شفتيها الدقيقتين كشفاه الأطفال ورؤية عينيها المغرورقتين بالدموع غبطةً حقيقية بالنسبة إليّ. كم كانت رائعة، كم كانت جميلة، ويا للإلهام المشرق والحماس اللذين كانا يشعّان في وجهها! حينذاك كنت لا أرى سوى هذا كله، لكنني لم أكن أفهم كل شيء. والآن أيضاً كثيراً ما أطرح على نفسي السؤال التالي: لعل الحب أيضاً إلهامٌ مماثل لإلهام الرسام والشاعر؟ حين كنت أنظر إلى جميلة كانت تراودني الرغبة في الهرب إلى السهب والصراخ سائلاً الأرض والسماء عمّا ينبغي لي أن أفعل، وكيف لي أن أقهر هذا القلق المبهم وهذا الفرح المبهم. ويبدو أنني، ذات يوم، وجدت الجواب.

كنا عائدين من المحطة كالعادة، وكان الليل قد حلّ، وكانت مجموعات النجوم تتزاحم في السماء، والسهب على وشك النوم، وفقط أغنية دانيار كانت تدوّي، خارقةً الصمت، ثم تتلاشى في العتمة اللطيفة بعيداً. كنت وجميلة نسير وراءه.

لكنْ هناك شيء مختلف في غناء دانيار هذه المرة: كان في غنائه حنينٌ لطيف ينفذ إلى القلب وشعورٌ بالوحدة يجعل المرء يبكي في داخله من التعاطف والشفقة تجاهه.

كانت جميلة تسير مطأطئة الرأس وهي تمسك بدرابزين العربة بقوة، وحين علا صوت دانيار ثانيةً بالغناء رفعت جميلة رأسها ووثبت

إلى العربة وهي تسير وجلست إلى جواره. جلست جامدةً مكتّفةً يديها على صدرها. سرت بمحاذاتهما، وحين تقدّمتهما نظرت نحوهما مواربةً. كان دانيار يغنّي دون أن يلحظ جميلة إلى جواره كما يبدو. رأيت كيف ارتخت يداها وأُسبلتا، وكيف التصقت بدانيار وأسندت رأسها إلى كتفه برقّة. ارتعش صوت دانيار لبرهةٍ فقط، كقفزة حصانٍ لسعه سوط، ثم راح يصدح بقوةٍ جديدة: كان يغنّي عن الحب!

كنت مذهولاً. كأنما السهب أزهر، استُثير وأزاح الظلمة. أما أنا فقد رأيت في هذا السهب الشاسع عاشقين، في حين أنهما لم يلحظاني، وكأني لم أكن موجوداً. كنت أسير وأشاهدهما وهما يتمايلان على إيقاع الأغنية، ذاهلين عن كل ما في الدنيا. لم أتعرّفهما. فقد كان دانيار هو دانيار نفسه، في قميصه العسكري البالي المحلول الأزرار، لكنّ عينيه بدتا وكأنهما تلمعان في العتمة. وهي كانت جميلتي نفسها، ملتصقةً به، هادئة وحيّة، وعلى أهداب عينيها دموعٌ تتلألأ. لقد كانا شخصين جديدين، سعيدين سعادةً لم يُرَ لها مثيل. ألم تكن هذه سعادةً حقاً؟ فدانيار كان يهب جميلة كل حبه الهائل لموطنه الذي خلق فيه هذه الموسيقى الملهمة: كان يغنّي من أجلها؛ كان يغنّي عنها.

مرةً أخرى استبدّ بي ذاك القلق غير المفهوم الذي ينتابني دائماً مترافقاً مع أغنيات دانيار. فجأةً بات واضحاً لي ماذا أريد: أريد أن أرسمهما!

أفزعتني أفكاري، لكنّ رغبتي كانت أقوى من هلعي. سوف أرسمهما على هذا النحو: سعيدين! نعم، كما هما الآن! لكن هل

أستطيع؟ انقطع نفسي من الخوف والفرح. استغرقت في حلم لذيذ. أنا أيضاً كنت سعيداً، لأنني لم أكن أعرف بعد حجم المصاعب التي ستسبّبها لي هذه الأمنية الجريئة في المستقبل. قلت لنفسي إنّ عليّ أن أرى الأرض كما يراها دانيار، وأن أنشد أغنية دانيار بالألوان، وستكون لدي أنا أيضاً جبال وسهب وبشر وعشب وسحب وأنهار. بل وتساءلت في نفسي آنذاك: "لكن من أين آتي بالألوان؟ ففي المدرسة لن يعطوني، فهم أنفسهم يحتاجونها" وكأنّ الأمر كله كان وقفاً على ذلك.

انقطعت أغنية دانيار على حين غرّة. فقد عانقته جميلة باندفاع، لكنها تراجعت في الحال، وجمدت مكانها للحظة، ثم ارتمت جانباً وقفزت من العربة. جذب دانيار الأعنّة في تردّد فتوقفت الخيول. وقفت جميلة في الطريق، مديرةً ظهرها له، ثم رفعت رأسها إلى الوراء بقوة ورنت إليه بطرف عينها، وقالت وهي بالكاد تحبس دموعها:

- ما لك تنظر إليّ؟ - وبعد فترة صمت أردفت بصرامة: - لا تنظر إليّ، تابع طريقك! - واتجهت إلى عربتها، ثم قالت تهاجمني: - وأنت ما لك تحملق إليّ؟ اجلس، وأمسك بأعنّتك! آخ، ويلي منكما!

"ماذا جرى لها فجأةً؟" قلت لنفسي حائراً وأنا أحثّ الخيول خبباً. لكن لم تكن هناك حاجة إلى التخمين: لم يكن الأمر هيّناً عليها، إذ لها زوج شرعي، على قيد الحياة، في مكانٍ ما بمستشفى ساراتوف. لكنني لم أكن أريد التفكير في أيّ شيء على الإطلاق. لقد كنت حانقاً عليها وعلى نفسي، ولربما كنت كرهت جميلة لو علمت أن دانيار سيكفّ عن الغناء وأنني لن يتسنّى لي أبداً سماع صوته بعد ذلك.

كنت تعباً منهوك القوى وأريد الوصول بأسرع ما يمكن إلى القرية والارتماء على القش. كان ظهرا الجوادين المسرعين يترجرجان في الظلمة، وكانت العربة تتأرجح بشكل لا يُحتَمل، والأعنّة تنزلق من يدَي.

في البيدر، نزعت لجامي الحصانين كيفما كان وألقيت بهما من تحت العربة، وحين بلغت كومة القش ارتميت عليها. هذه المرة قام دانيار بسوق الخيول إلى المرعى.

لكنني استيقظت في الصباح يخالجني شعورٌ بالفرح. سوف أرسم جميلة ودانيار. أغمضت عينَي وتخيّلت بدقة شديدة دانيار وجميلة كما سأرسمهما. شعرت أنْ لم يبقَ لي سوى تناول الفرشاة والألوان والشروع في الرسم.

هرعت إلى النهر فغسلت وجهي، وأسرعت إلى الخيول المقيدة. كان البرسيم البليل البارد يسوط قدمَي الحافيتين بلطف ويلسع باطن قدمَي المتشققين، لكنني كنت مبتهجاً. كنت أركض وألحظ في طريقي ما يحدث من حولي. كانت الشمس تبزغ من وراء الجبال، وكانت زهرةَ عبّاد الشمس، نبتت عَرَضاً على الساقية، تشرئبّ نحو الشمس. كانت نبتات عصا الراعي البيضاء الرأس تحاصرها بقوة، لكنها لم تستسلم، بل كانت تختطف منها بألسنتها الصفراء أشعة الصباح وتروي بها سلّتها المليئة إلى آخرها بالبذور. وها هو الممر الذي خدّدته عجلات العربات عبر الساقية، والمياه تسيل عبر الأخاديد؛ وها هي الجزيرة الليلكية الصغيرة التي نما فيها النعنع الفوّاح بعلوّ خصر الإنسان؛ وها أنا أركض في أرض موطني وفوق

راسي تحلّق سنونوةٌ تسابقني. آه لو كانت بحوزتي ألوان كي أرسم أيضاً شمس الصباح والجبال البيض المشوبة بالزرقة والبرسيم النديّ وزهرة عبّاد الشمس البرية هذه، التي نمت قرب الساقية.

حين عدت إلى البيدر تعكّر مزاجي البهيج على الفور. فقد رأيت جميلة عابسةً كئيبة. لعلها لم تنم تلك الليلة، فقد كانت هناك ظلال داكنة تحت عينيها. لم تبتسم لي ولم تكلّمني. لكن حين حضر رئيس العمال أوروزمات توجّهت نحوه وقالت له دون أن تحيّيه:

- خذ عربتك! أرسلني أينما شئت، لكنني لن أذهب إلى المحطة!

فقال أوروزمات بدهشة وحسن نية:

- ما بك يا جميلتي، هل قرصتك ذبابة خيل أم ماذا؟

- ذباب الخيل يفضّل ما تحت ذيول العجول، أما أنا فلا تستجوبني! قلت إنني لن أذهب ونقطة على السطر!

تلاشت الابتسامة عن وجه أوروزمات، و قال وهو يقرع الأرض بعكازه:

- سوف تنقلين الحبوب شئت أم أبيت!... إن كان أحدهم قد أزعجك أخبريني، سأكسر عكازي على رقبته! وإن لم يكن الأمر كذلك، فلا تتحامقي: إنك تنقلين الخبز من أجل الجنود، وزوجك نفسه هناك! - واستدار بحدّة وسار يعرج متكئاً على عكازه.

انزعجت جميلة واحمرّت من رأسها إلى قدميها، وتنهدت وهي ترنو نحو دانيار. كان دانيار يقف بعيداً بعض الشيء مولياً إياها ظهره، وكان يشدّ سيور الخيل بعصبية. لقد سمع الحديث كله. ظلت جميلة

واقفةً قليلاً وهي تدعك السوط بيدها، ثم لوّحت بيدها بحركةٍ يائسة واتجهت نحو عربتها.

في ذلك اليوم عدنا أبكر من المعتاد. كان دانيار يحثّ الخيول طوال الطريق، وكانت جميلة متجهّمة وصامتة. ولم أصدّق أن أمامي يمتد السهب محروقاً مسودّاً؛ فهو لم يكن كذلك على الإطلاق أمس، وكأنني سمعت عنه في حكاية، ولم تكن تغيب عن بالي لوحة السعادة التي قلبت كياني. بدا لي أنني قد التقطت القطعة الأشدّ سطوعاً من الحياة. لقد تخيّلتها بكل تفاصيلها، ولم يكن يشغل بالي سوى ذلك. ولم يهدأ لي بال إلا بعد أن سرقت من المرأة القائمة على الميزان ورقةً ثخينةً بيضاء. تواريت وراء حزم القش، وقلبي يخفق في صدري بقوة، وبسطتها على رفش خشبي أملس اختطفته من عند الذُراة[1] في طريقي.

- بركاتك يا الله! - قلت هامساً، مقلّداً أبي عندما أجلسني على الحصان للمرة الأولى، ولمست الورقة بقلم الرصاص. كانت هذه خطوطي الخرقاء الأولى. لكن عندما بدأت ترتسم على الورقة ملامح دانيار، نسيت كل شيء! بدا لي أنّ سهب آب الليلي ذاك ينبسط على الورقة، وخلتُ أنني أسمع أغنية دانيار، بل وأراه هو نفسه، برأسه المرفوع الملقى إلى الخلف وصدره العاري، وأرى جميلة الملتصقة بكتفه. كان هذا أول رسم لي أرسمه بمفردي: ها هي العربة، وها هما كلاهما، ها هي الأعنّة ملقاة على مقدمة العربة، ظهور الخيول تتماوج في العتمة، وفي الخلفية السهب والنجوم البعيدة.

كنت أرسم بشغف بحيث أنني لم أكن ألحظ شيئاً من حولي، ولم

---

١ - الذُراة: الذين يذرون الحبوب.

أثب إلى نفسي إلاّ حين تردد صوت فوق رأسي:

- ما بك، هل أنتم أصمّ؟

لقد كانت جميلة. ارتبكت واحمررت ولم يتسنَّ لي المجال لإخفاء الرسم.

- العربات محمّلة منذ زمنٍ طويل، منذ ساعة ونحن نصيح، لكن دون جدوى! ماذا تفعل هنا؟... وما هذا؟ - سألت وتناولت الرسم.

- هممم! - ورفعت جميلة كتفيها باستياء.

تمنيت لو انشقّت الأرض وابتلعتني. ظلت جميلة ترنو إلى الرسم طويلاً طويلاً، ثم رفعت إليّ عينين حزينتين مبللتين وقالت بهدوء:

- أعطني إياها يا "كيتشيني بالا"... سأخبّئها للذكرى... - ثم طوت الورقة نصفين ودسّتها في عبّها...

كنا قد صرنا في الطريق، لكني لم أتمكّن من الثواب إلى رشدي. فقد جرى هذا كله كما لو في حلم. لم أكن أصدّق أنني رسمت شيئاً يشابه ما رأيته. لكن في مكانٍ ما في أعماقي كانت تتعالى غبطةٌ ساذجة، بل واعتزاز، وأحلام تصيبني بالدوار: كلّ حلم أشدّ جرأةً وإغراءً من الآخر. بتُّ أريد رسم عدة لوحات مختلفة، لكن ليس بالقلم الرصاص بل بالألوان. ولم أعِر بالاً إلى أننا نسير بسرعةٍ شديدة. كان دانيار هو من يحثّ الخيول بهذه السرعة، وكانت جميلة تجاريه. أحياناً كانت تتلفت إلى الجانبين، وتارةً تبتسم لشيءٍ ما ابتسامةً مؤثرةً مصحوبةً بالشعور بالذنب. وأنا أيضاً ابتسمت: هذا يعني أنها لم تعد مستاءة منّا أنا ودانيار، ولو أنها طلبت من دانيار أن يغنّي اليوم فسيغنّي...

بلغنا المحطة أبكر من المعتاد بكثير هذه المرة، لذا كانت الخيول

مغطاة بالزبد. بدأ دانيار ينقل الأكياس في الحال. كان يصعب إدراك سبب استعجاله وما يحدث له. حين كانت القطارات تعبر بجواره كان يتوقف ويشيّعها بنظراتٍ ساهمة مديدة. جميلة أيضاً كانت تنظر إلى حيث ينظر، وكأنما كانت تحاول أن تدرك فيمَ يفكّر.

نادت جميلة دانيار تقول له:

- تعال إلى هنا، الحدوة مخلخلة، ساعدني على انتزاعها.

بعد أن انتزع دانيار الحدوة عن حافر الحصان، الملطّخ بين ركبتيه بالسخام، استقام واقفاً، فشرعت جميلة تقول له بصوتٍ خفيض وهي تنظر إلى عينيه:

- ما بك، أم أنك لا تفهم؟... أم لا توجد غيري في الدنيا؟...

أشاح دانيار بعينيه في صمت. تنهدت جميلة وقالت:

- أوَتظنّ الأمر سهلاً عليّ؟

رفع دانيار حاجبيه ونظر إليها بحبٍّ وحزن وقال شيئاً ما، لكن صوته كان خافتاً فلم أسمع ما قال، ثم خطا بسرعة نحو عربته، بل وكان مسروراً لأمرٍ ما. كان يسير وهو يداعب الحدوة بيده. أنعمت إليه النظر لكنني لم أفهم: بمَ يمكن لكلمات جميلة أن تطمئنه؟ وأي سكينة وطمأنينة حين يقول المرء وهو يتنهد تنهيداً ثقيلاً: "أوَتظن الأمر سهلاً عليّ؟..."

كنا قد أنهينا تفريغ الحمولة ونهمّ بالعودة أدراجنا، حين ولج الفناء جنديٌّ مصاب، نحيل، في معطفٍ مكرمش، وعلى كتفيه كيس أمتعة. كان قطارٌ قد توقف في المحطة قبل ذلك ببضع دقائق. تلفّت الجندي حوله وصاح:

- مَنْ هنا من قرية كوركوريو؟

- أنا من كوركوريو! - أجبته وأنا أتساءل ترى من يكون.

- ومن أي عائلة أنت يا أخ؟ - وهمّ الجندي بالتوجّه نحوي لكنه في تلك اللحظة لمح جميلة فابتسم بدهشةٍ وفرح.

- كريم! أهذا أنت؟ - صاحت جميلة.

- أوه، يا جميلة، يا أختاه! - واندفع الجندي نحوها وشدّ على كفّها براحتيه. تبيّن أنه من أبناء قرية جميلة.

ثم قال بانفعالٍ وتأثّر:

- اسمعي بالمناسبة! ما إن علمت حتى عرّجت إلى هنا! فأنا قادم من عند صادق مباشرةً، فقد كنا في المستشفى معاً، وإن شاء الله سيعود إلى البيت خلال شهر أو شهرين. عندما ودّعنا بعضنا قلت له: اكتب رسالة إلى زوجتك، سأوصلها... ها هي، استلميها، بتمامها وكمالها. - ومدّ كريم لجميلة ورقةً مثلثة الشكل.

اختطفت جميلة الرسالة، احمرّ وجهها، ثم ابيضّ، ونظرت مواربةً وبحذر نحو دانيار. كان دانيار يقف بمفرده إلى جوار العربة، كما كان يقف آنذاك في البيدر، مباعداً بين ساقيه، وينظر إلى جميلة بعينين ملؤهما اليأس.

وهنا تراكض الناس من جميع الجهات، وتبيّن على الفور أنّ بينهم معارف وأقارب للجندي، وانهالت الأسئلة. ولم يتسنّ لجميلة حتى أن تشكره على الرسالة، فقد قرقعت بمحاذاتها عربة دانيار واندفعت مغادرةً الباحة وهي تتقافز في الأخاديد مخلّفةً سحابةً من الغبار.

صاحت جميلة في إثره:

- هل جُنّ أم ماذا؟

كانوا قد أخذوا الجندي إلى مكانٍ ما، بينما كنّا، أنا وجميلة، لا نزال واقفين في وسط الباحة ننظر إلى سحابة الغبار المبتعدة.

قلت لها:

- لنذهب يا زوجة أخي.

فأجابت بمرارة:

- اذهب أنت واتركني لوحدي!

وهكذا، كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها كلٌّ منا إلى القرية بمفرده. كان الحرُّ الخانق يحرق شفتَي الجافتين، والأرض المحروقة المتشققة، المحمّاة خلال النهار إلى أقصى حدّ، تبدو الآن وقد ابتردت وغطّاها شَيبٌ مالح. وفي ضبابٍ ضاربٍ إلى البياض، كذلك كالملح، كانت تتماوج في الأفق شمسٌ مترنّحةٌ لا شكل لها. هناك، أعلى الأفق الغائم، تجمّعت سحبٌ عاصفة برتقالية مشوبة بالحمرة، وتهبّ ريحٌ جافة على دفعات، مبيّضةً خطوم الخيول بزبدٍ أبيض، وتجعل أعرافها تخفق بقوة، ثم تذهب بعيداً، مدحرجةً مكانس الشيح فوق الروابي.

فكّرت: "تُرى هل ستمطر أم ماذا؟".

يا للضيق الذي شعرت به، ويا للقلق الذي انتابني! رحت أسوط الحصانين اللذين كانا يحاولان مزامنة خطوهما. كانت حُباريات نحيفة طويلة السيقان تتراكض في فزع إلى مكانٍ ما باتجاه مجرى السيل. كانت أوراق نبات الأرقطيون[1] الصحراوي تتطاير في الطريق

١ - الأرقطيون: هي النبتة المعروفة باسم "راعي الحمام".

- لا وجود لهذه الأوراق عندنا، بل حملتها الريح من مكانٍ ما من كازاخستان. غربت الشمس. ما من نَفَس في الجوار، باستثناء السهب الذي أنهكه النهار.

عند وصولي إلى البيدر كان الظلام قد حلّ. كان الصمت سائداً والريح ساكنة. ناديت دانيار فأجابني الحارس:

- لقد ذهب إلى النهر. الجو خانق بشدّة، وقد ذهب الجميع إلى بيوتهم. فمن دون ريح لا يمكن عمل شيء في البيدر!

سقت الخيول لترعى، وقررت العروج على النهر؛ فقد كنت أعرف مكان دانيار المفضّل أعلى الجرف.

كان دانيار يجلس محدودب الظهر، واضعاً رأسه على ركبتيه، ويصغي إلى هدير النهر أسفل الجرف. أردت الدنو منه ومعانقته وأن أقول له كلاماً لطيفاً، لكن ماذا كان بإمكاني أن أقول له؟ وقفت منزوياً جانباً لبعض الوقت، ثم عدت أدراجي. استلقيت طويلاً على القش وأنا أنظر إلى السماء المضبّبة بالغيوم وأفكّر: "لِمَ الحياة مبهمة ومعقّدة على هذا النحو؟".

لم تكن جميلة قد عادت بعد. ترى أين هي؟ لم أستطع النوم، رغم أني كنت منهكاً من التعب. كانت بروق بعيدة تومض في أعماق السحب أعلى الجبال.

حين جاء دانيار لم أكن قد نمت بعد. كان يتجول في البيدر على غير هدى، ويلقي من حين لآخر نظرةً على الطريق، ثم ارتمى وراء كدسٍ من القش إلى جواري. لسوف يغادر إلى مكانٍ ما، ولن يبقى في القَرية. لكن إلى أين؟ فهو وحيد، بلا مأوى، فمَن يحتاج إليه؟

وبين النوم واليقظة تناهى إليّ صوت عربةٍ تقترب وهي تقرقع ببطء. يبدو أن جميلة قد وصلت...

لا أذكر كم من الوقت استغرقت في النوم حين خشخشت فجأةً خطوات أحدهم على القش عند أذني تماماً، وشعرت أنّ جناحاً مبللاً لامس كتفي بلطف. فتحت عينَي. كانت جميلة. قدمت من النهر في ثوبٍ مبللٍ معصور. توقفت جميلة وتلفّتت في الأنحاء، ثم جلست إلى جوار دانيار، وقالت بصوتٍ خافت:

– لقد أتيت يا دانيار، أتيت بنفسي.

كان الصمت مخيّماً في الجوار، وتزحلق برقٌ من دون صوت إلى الأسفل.

– هل استأتَ؟ انزعجتَ كثيراً، أليس كذلك؟

ثم حلّ الصمت ثانيةً، سوى من طرطشةٍ أحدثتها كتلةٌ من الطين سقطت في النهر.

– هل الذنب ذنبي أنا؟ أوَلستَ مذنباً أيضاً...

زمجر الرعد في البعيد فوق الجبال، وأنار البرق جانباً من وجه جميلة. التفتت حولها وارتمت على دانيار. كانت كتفاها ترتعشان بتشنّج بين يدي دانيار. تمددت على القش واستلقت إلى جوار دانيار.

هبّت ريح حارة من السهب وأثارت زوبعةً من القش، وصدمت الخيمة المتقلقلة المنتصبة على طرف البيدر فبرمتها كدُوّامة[1] على قارعة الطريق. ومن جديد لاحت بين الغيوم بروقٌ زرق، وتقصّف

١ – الدُّوامة أو "الخذروف": لعبة تُلَفّ بخيط وترمى على الأرض فتدور، ويقال لها بالعامية المحلية "بلبل".

الرعد فوق رؤوسنا بهديرٍ جاف. صار الأمر مخيفاً ومفرحاً - العاصفة تقترب؛ وهي العاصفة الصيفية الأخيرة.

همست له جميلة بحرارة:

- أوَتعتقد أنني أفضّله عليك؟ كلا، أبداً! فهو لم يحبني يوماً. حتى التحية لا يكتبها إلا في آخر الرسالة. لست بحاجة إليه وإلى حبّه المتأخر، وليقولوا ما يشاؤون! يا حبيبي، يا وحيدي، لن أتخلى عنك لأيٍّ كان! فأنا أحبك منذ زمنٍ بعيد، وكنت أحبك وأنتظرك من قبل أن أعرفك، وها قد أتيت، وكأنك كنت تعلم أنني أنتظرك!

كانت بروقٌ زرق، الواحد تلو الآخر، تنغرز متكسّرةً في النهر أسفل الجرف، وتخشخش قطرات المطر القارسة وهي تتساقط مائلةً على القش.

همس لها دانيار ناعتاً إياها بألطف الأسماء الكازاخية والقرغيزية:

- يا جميلاي، يا جميلتاي الحبيبة العزيزة! وأنا أيضاً أحبك منذ زمنٍ بعيد، وكنت أحلم بك في الخنادق. كنت أعلم أن حبي في موطني هو أنت يا جميلتي!

- استدر نحوي ودعني أنظر في عينيك!

هبّت العاصفة.

أخذ اللبّاد المنزوع عن الكوخ يخفق كجناحي عصفورٍ ذبيح، وانهمر المطر عاصفاً متقطّعاً كأنما يقبّل الأرض، والريح تسفعه من الأسفل، والرعد ينهال بكتلٍ جبّارةٍ بقوسٍ يعبر السماء كلها، وتومض البروق بسطوع في أعالي الجبال كوميض الخزامى في الربيع، والريح

تهدر وتزمجر في مجرى السيل.

كان المطر ينهمر، وكنت مستلقياً، غائصاً في القش، وأشعر بدقات قلبي تحت يدي. لقد كنت سعيداً. كان شعوري كأني خرجت لأنظر إلى الشمس للمرة الأولى بعد المرض. لقد بللني المطر وكنت أرى وميض البرق وأنا أسفل القش، لكنني كنت على ما يرام، فغفوت مبتسماً، دون أن أدري أهي همسات دانيار وجميلة ما يتناهى إلي أم هي خشخشة رذاذ المطر الهاطل على القش.

لقد بدأ موسم الأمطار، وقريباً يحلّ الخريف، فقد بدأت تفوح في الجو رائحة الشيح الرطب والقش المبلل الخريفية. أما ماذا ينتظرنا في الخريف؟ فإني، لسببٍ ما، لم أفكّر في ذلك.

في ذلك الخريف، بعد انقطاع دام سنتين، عدت أرتاد المدرسة من جديد. بعد الدروس، كنت غالباً أذهب إلى النهر، إلى الجرف، وأجلس قرب البيدر السابق، الذي بات مقفراً ومهجوراً الآن. هنا بالذات رسمت رسومي التمهيدية الأولى بالألوان المدرسية. حتى وفق مداركي آنذاك، لم أكن موفّقاً.

"الألوان رديئة! آه لو كانت لديّ ألوان حقيقية!" - كنت أقول لنفسي، رغم أنني لم أكن أتخيّل كيف ينبغي لها أن تكون.

ولم يتسنّ لي رؤية ألوان زيتية حقيقية في أنابيب من الرصاص إلا بعد فترة طويلة نسبياً.

وسواء أكان ذلك بسبب الألوان أم لا، فمع ذلك يبدو أن الأساتذة كانوا على حقّ: الرسم ينبغي دراسته. إلاّ أنّ الدراسة كانت حلماً بعيد

المنال، إذ ما من أنباء عن إخوتي، ولم تكن والدتي لتخلي سبيلي، أنا ابنها الوحيد، فارس ومعيل أسرتين، لقاء أيّ شيءٍ كان، ولم أكن أجرؤ حتى على الخوض في هذا الموضوع. وكان الخريف يتألق بمنتهى الجمال، كأنما نكايةً بي، ولا ينقصه سوى أن يُرسَم.

أصبح نهر كوركوريو الشديد البرودة ضحلاً، واكتست الصخور العارية في الأماكن الضحلة بفراءٍ أخضر قاتم وبرتقالي اللون. احمرّ الصفصاف العاري اللطيف جرّاء البرد المبكر، لكنّ الحور كان لا يزال يحتفظ بأوراقه الكثيفة الصفراء.

أكواخ الرعاة المغطّاة بالسخام، المنصوبة في الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان على العشب الأصفر المحمرّ، اسودّت بعد أن غسلتها الأمطار، وكانت تتصاعد من فوهات المداخن خيوط الدخان الأزرق الفوّاح. كانت فحول الخيول الضامرة تصهل صهيلاً رنّاناً كعادتها في الخريف، وتَشتّت الإناث، والآن لن يكون سهلاً إبقاؤها مع القطعان إلى حين قدوم الربيع، والماشية، العائدة من الجبال، تجول السهول قطعاناً، والأخاديد تقطع السهب المسمرّ الجاف طولاً وعرضاً.

بعد قليل بدأت ريح السهوب تهبّ وتلبّدت السماء بالغيوم، وأخذت أمطارٌ باردة تهطل منذرةً بالثلج. وفي أحد الأيام كان الطقس مقبولاً، فذهبت إلى النهر - كم راقت لي شجيرة زيزفون جبلية حمراء كالنار كانت منتصبة في وهدةٍ قليلة الغور! - وجلست في ظل شجرة صفصاف غير بعيدٍ عن المخاضة.

حلّ المساء. وفجأةً لمحت شخصين، واضح أنهما عبرا النهر

من حيث المخاضة. كانا دانيار وجميلة. لم أستطع أن أبعد عيني عن وجهيهما المتجهمين القلقين. كان دانيار يمشي بعصبية وعلى كتفه كيس الأمتعة العسكري، وأطراف معطفه المفتوح تضرب ساقي جزمته البالية. وكانت جميلة ملفعّة بشالٍ أبيض، كان متجمعاً على قذالها في هذه اللحظة، وكانت ترتدي أفضل أثوابها، وهو ثوبٌ زاهٍ كانت تحب أن ترفل فيه وهي تتغندر في السوق، وفوق الثوب سُترةٌ مطرّزة من المخمل. كانت تحمل في إحدى يديها صرّة، وبالأخرى تمسك بسَير كيس دانيار، وكانا يتحدثان في أمرٍ ما أثناء سيرهما.

ها هما يسيران في دربٍ في الوادي بين الشجيرات، وأنا أتبعهما بنظري لا أدري ماذا أفعل. أأناديهما؟ لكنّ لساني كأنما التصق بسقف حلقي.

كانت الأشعة الأرجوانية الأخيرة تنزلق على رتلٍ من السحب البلقاء المسرعة على امتداد الجبال، وفي الحال بدأ الظلام يحلّ. أما دانيار وجميلة فكانا يبتعدان باتجاه تقاطع خطوط السكة الحديد دون أن يلتفتا، وقد لاح رأساهما مرة أو مرتين بين شجيرات الأجمة ثم اختفيا.

ناديت بأعلى صوتي:

- جميلة - ا - ا - اا

- ا - ا - ا - اا - ارتدّ الصدى من مكانٍ ما.

- جميلة - ا - اا - ناديت مرة أخرى، وأخذت أركض في إثرهما عبر النهر، خائضاً في الماء مباشرةً، وقد فقدت صوابي.

كانت سحبٌ من قطراتٍ قارسة تتطاير في وجهي، وتبللت ثيابي، بينما تابعت الركض تائهاً عن الطريق، وفجأةً تعثرت بشيءٍ ما وهويت على الأرض بقوة. ظللت مستلقياً على الأرض دون أن أُرفع رأسي، وغمرت الدموع وجهي، والظلمة بدت وكأنها ناءت بثقلها على كتفَي.

كانت أغصان الشجيرات المقوّسة تصفّر بنعومةٍ وحنين.

صرخت مختنقاً بدموعي:

- جميلة! جميلة!

لقد فارقت أعزّ الناس وأقربهم إليّ، ولم أدرك إلاّ الآن، وأنا ممدّد على الأرض، أنني إنما أحببت جميلة. نعم، كان هذا حبي الأول، وكان حباً طفولياً.

ظللت مستلقياً لفترةٍ طويلة، داسّاً وجهي في مرفقي المبلّل؛ فأنا لم أفارق جميلة ودانيار فقط، بل وطفولتي أيضاً.

حين بلغت البيت، متلمّساً طريقي في العتمة، كان الفناء في هرج ومرج والركائب تصلصل، وكان أحدهم يسرج الخيل، وعثمانَ الثمل يتبختر على حصانه ويزعق ملء حنجرته:

- كان ينبغي طرد هذه الكلبة القحبة عديمة الأصل من الضيعة منذ زمنٍ بعيد! خزيٌ وعارٌ للقبيلة كلها! إن وقع في يدي لأقتلنّه على الفور، وليجرّموني، لن أسمح بأن يتطاول علينا أسقاط الناس ويخطفوا نساءنا! هيّا، امتطوا جيادكم يا رجال، فلا مفرّ له، سنلحق به في المحطة!

ارتعدت فرائصي: إلى أين ينطلقون؟ لكن حين أيقنت أنّ المطارِدين

انطلقوا في الطريق العام نحو المحطة، لا في اتجاه تقاطع خطوط السكك الحديد، تسللت إلى الدار دون أن يلمحني أحد والتففت حتى رأسي بفروة أبي حتى لا يلحظ دموعي أحد.

يا لَلّغط والأقاويل التي تنوقلت في القرية: كانت النساء يتنافسنَ في إدانة جميلة.

- حمقاء! هجرت عائلة كهذه! داست سعادتها بقدميها!

- فيمَ طمعت، يتساءل المرء؟ فهو لا يملك سوى معطفه الرثّ وجزمته المثقوبة!

- طبعاً، من يجلب الدبّ إلى كرمه! متسكّع شريد بلا أصل، لا يملك سوى ما عليه. ستندم الحلوة طبعاً، لكن بعد فوات الأوان.

- وما الذي يعيب صادق كزوج، فيمَ يقصّر كمعيل؟ أليس أفضل فرسان القرية!

- والحماة؟ لا يمنح الله حماة كهذه لكل النساء! فلتذهب وتبحث عن حماة مثلها! الحمقاء، أهلكت نفسها بنفسها، عبثاً ومن أجل لا شيء!

لعلي الوحيد الذي لم يلم جميلة، زوجة أخي السابقة. حتى لو كان دانيار لا يملك سوى معطفه الرث وجزمته المثقوبة، فقد كنت أعرف أنه بروحه أغنى منّا جميعاً. لا، ما كنت أصدّق أنّ جميلة ستكون شقيةً معه. لكنني اشفق على أمي وحسب، فقد بدا لي أن قوتها السابقة غادرتها مع رحيلِ جميلة. لقد صارت كئيبة ولاح الضمور في ملامحها، ولم تتمكن قط - كما صرت أفهم اليوم - من قبول أن تُحطّم الحياة الدعائم القديمة مرةً أخرى. حين تقتلع

العاصفة شجرةً قوية فإنها لا تنتصب واقفةً بعد ذلك أبداً. في الماضي لم تكن أمي تطلب من أحد أن يلضم لها إبرتها، فاعتزازها بنفسها لم يكن يبيح لها ذلك. وها أنا أعود من المدرسة في أحد الأيام فأرى يديها ترتعشان: إنها لا ترى خرم الإبرة، وكانت تبكي.

– خذ، أُلضم لي الإبرة! – طلبت مني ذلك وتنهدت بقوة.

– ستضيع جميلة... آخ، كم كانت لتكون ربة بيت رائعة! لقد رحلت... هجرتنا... ولماذا؟ هل كانت أحوالها سيئة عندنا؟...

أردت أن أعانق أمي وأواسيها؛ أن أخبرها عن مدى روعة دانيار، لكني لم أجرؤ، لكنت أهنتها مدى الحياة.

وعلى أي حال، لم تعد مساهمتي البريئة في هذه القصة سرّاً... فسرعان ما عاد صادق إلى البيت. أحزنه الأمر بالطبع، رغم أنه قال لعثمان وهو ثمل:

– رحلت، وليكن، فهي تستحق هذا المصير. لسوف "تفطس" في مكانٍ ما. هناك ما يكفينا من النساء مدى الحياة. حتى المرأة الذهبية الشَعر لا تستحق أنفه الرجال.

أجاب عثمان:

– هذا صحيح! لكن يؤسفني أنه لم يقع في يدي آنذاك، لكنت قتلته وانتهى الأمر. أما هي، لكنت ربطتها من شعرها بذيل حصاني! من المؤكد أنهما توجّها جنوباً، للعمل في قطاف القطن، أو ذهبا عند الكازاخ، فهي ليست أول مرة يتشرّد فيها! لكنني لا أفهم كيف حدث ذلك كله، وكيف لم يعلم أحد بالأمر، بل ولم يكن أحد قادراً على تخيّل ذلك. تلك الحقيرة هي من دبّرت الأمر كله! لو أمسكت بها!...

وأنا أسمع هذه الأقوال كم كنت أودّ أن أقول لعثمان: "إنك لا تستطيع أن تنسى كيف وبّختك عند حزم القش. يا لوضاعتك!".

وكنت ذات مرة جالساً في البيت، أرسم شيئاً ما من أجل جريدة الحائط المدرسية، وكانت أمي منشغلةً بالعمل قرب مدفأة الحطب، حين اندفع صادق إلى الغرفة فجاةً. كان ممتقع الوجه وعيناه تقدحان بالشرر. انقضّ عليّ ودسّ ورقةً تحت أنفي.

- اأنت من رسم هذا؟

ارتبكت. فقد كان أول رسمٍ لي: كان دانيار وجميلة يرمقانني في تلك اللحظة.

- نعم.

- من هذا؟ - وغرز أصبعه في الورقة.

- دانيار.

- خائن! - صرخ صادق في وجهي، ثم مزّق الورقة مِزقاً صغيرة وخرج صافقاً الباب بشدّة.

بعد صمتٍ طويلٍ ثقيل سألتني أمي:

- اكنت تَعلم؟

- نعم، كنت أعلم.

يا لنظرة التوبيخ والذهول التي رمقتني بها وهي مستندة إلى المدفأة! وعندما قلت "ولسوف أرسمهما مرةً أخرى!" هزّت رأسها بمرارةٍ وعجز.

أما أنا فرحت أنظر إلى قصاصات الورق المبعثرة على الأرض، يخنقني حنقٌ لا يطاق. فليعتبروني خائناً. من خنت؟ العائلة؟ قبيلتنا؟

لكنني لم أخن الحقيقة؛ حقيقة الحياة؛ حقيقة هذين الإنسانين. لم أكن قادراً على أن أروي هذا لأحد، فحتى أمي لن تفهمني.

صار كل شيء مائعاً في عيني، وبدت قصاصات الورق تدبّ على الأرض كأنها كائنات حية. انحفرت في ذاكرتي تلك اللحظة التي رنا إليّ فيها دانيار وجميلة من الرسم بحيث خيّل لي أنني أسمع أغنية دانيار التي غنّاها في تلك الليلة المشهودة من شهر آب. تذكّرت كيف غادرا القرية، وشعرت برغبةٍ ملحّة في الخروج إلى الطريق والسير بشجاعةٍ وحزم، مثلهما، في درب السعادة العسير.

- سأذهب لأدرس... قولي لأبي إنني أريد أن أصبح رسّاماً! - قلت لوالدتي في حزم.

كنت على يقين من أنها ستبدأ بتوبيخي وأنها ستبكي، متذكرةً إخوتي الذين قُتلوا في الحرب، لكنها، لدهشتي، لم تبكِ. فقط قالت بحزنٍ وبصوتٍ خافت:

- ارحل... لقد كبرتم وصرتم تَخفقون بأجنحتكم... وأنّى لنا أن نعرف ما إن كنتم ستحلّقون عالياً؟ لعلكم محقّون. هيا ارحل... فربما تثوب إلى رشدك هناك، فهذه ليست مهنة... الرسم، بل والتلوين... ادرس وستعرف... ولا تنسَ بيتك...

منذ ذلك اليوم انفصل البيت الصغير عنّا. وأنا سرعان ما سافرت للدراسة.

هذه هي القصة كلها.

في الأكاديمية، التي أرسلوني إليها بعد معهد الفنون، قدّمت

مشروع الدبلوم - اللوحة التي لطالما حلمت بها.

ليس من الصعب التكهّن بأنّ اللوحة كانت تمثّل دانيار وجميلة وهما يمشيان على دربٍ خريفيٍّ سهبي وأمامهما أفقٌ مشرقٌ شاسع. ولا بأس في أنّ لوحتي ليست كاملة، فالمرء لا يكتسب المهارة على الفور، لكنّها عزيزة عليّ بلا حدود، فهي محاولتي الإبداعية الأولى.

والآن أيضاً لي إخفاقاتي، إذ تمرّ علي لحظات ثقيلة أفقد فيها ثقتي بنفسي. وحينذاك أنجذب إلى تلك اللوحة العزيزة على قلبي، وألتفت نحو دانيار وجميلة فأتأملهما طويلاً، وفي كل مرة أجري معهما حديثاً:

"أين أنتما الآن، وأي طريق تسلكان؟ لدينا الآن في السهب الكثير من الطرق الجديدة، عبر كازاخستان كلها، وصولاً إلى آلطاي وسيبيريا! الكثير من الناس الشجعان يكدحون هناك. لعلكما أنتما أيضاً ارتحلتما إلى تلك الأقاصي. لقد ذهبتِ، يا جميلتي، في السهب الشاسع دون أن تلتفتي إلى الوراء. لعلكِ تعبت، وربما فقدتِ ثقتك بنفسك؟ اتّكئي على دانيار. دعيه يغنّي لك أغنيته عن الحب؛ عن الأرض؛ عن الحياة! فليتمايل السهب وليتألّق بكل الألوان! ولتذكري تلك الليلة من آب! اذهبي يا جميلة بلا ندم، فقد وجدتِ سعادتك العصيّة!".

أنظر إليهما، ويتناهى إلي صوت دانيار. إنه يدعوني إلى الطريق - هذا يعني أنّ أوان الاستعداد للرحيل قد آن. سأذهب إلى قريتي عبر السهب، وهناك سأجد ألواناً جديدة.

فليصدح غناء دانيار مع كل لمسة من فرشاتي! وليخفق قلب جميلة مع كل ضربة من ضرباتها!

بينما يقاتل زوجها بعيداً على الجبهة، تمضي جميلة أيامها في نقل أكياس الحنطة من البيدر إلى محطّة القطار في قريتها الصغيرة في القوقاز، مع سعيد، شقيق زوجها الأصغر، ودانيار، الوافد الجديد إلى القرية، بعدما أُصيب في أرض المعركة.

يراقب سعيد جميلة، المرحة والمفعمة بالحيوية، ودانيار الحزين المحبّ للعزلة، وما يجري بينهما من إعجابٍ متبادل. وفي الممر الجبلي الذي يقطعه الثلاثة يومياً، بعرباتهمٍ المحمّلة بالحنطة، وعلى وقع الغناء الشجي الذي ينشده دانيار للوطن والأرض والجبال، سرعان ما تقع جميلة في حب دانيار، فتهرب معه قبل عودة زوجها، ليدرك الفتى الغضّ سعيد حقيقة الحب وجوهر السعادة...

إنها لوحة آسرة يرسمها إيتماتوف للحب في زمن الحرب في قريةٍ نائية في سهوب كازاخستان.

جنكيز إيتماتوف كاتب روسي وقرغيزي. من أشهر أعماله "النطع"، "يطول اليوم أكثر من قرن" و"وداعاً يا غوليساري". وقد تُرجمت أعماله إلى أكثر من مئة لغة، ونال جوائز عديدة من بينها "وسام لينين".

مكتبة
الفكر
الجديد

ISBN 978-1-85516-949-4
9 781855 169494 >

DAR
AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com